
لم ينجُ وحده
"ما نجا منه الجسد...
لم تنجُ منه الذاكرة"
إسراء درويش

لم ينجُ وحده

" ما نجا منه الجسد...

لم تنجُ منه الذاكرة "

إسراء درويش

الإهداء

إلى الذين مروا مروراً خفيفاً في حياة الآخرين،

لكنهم عاشوا أثقل الحكايات.

إلى من لم يُسألوا يوماً عما في قلوبهم،

لأن العالم كان مشغولا بالحكم عليهم.

هذا الكتاب محاولة متأخرة...

لأن يُقال ما لم يُقل.

المقدمة

ليس كل ما يحدث يُروى،
وليس كل ما يُروى يُفهم.

هناك حكايات تعيش طويلًا في الصمت،
لا لأنها صغيرة،
بل لأنها أعمق من أن تُقال بسهولة.

هذه الرواية لا تبدأ بحادث،
ولا تنتهي بإجابة.
هي مجموعة أصوات لم تجد وقتها في الحياة،
فقررت أن تظهر متأخرة...

حين صار الفقد أوضح من الوجود.
ستمر هنا على وجوه عابرة،
قد لا تتوقف عندها في الشارع،
لكنك لو اقتربت قليلًا،
لسمعت ما لم يقله أحد.

كل ما في هذه الصفحات
حدث في لحظةٍ واحدة،
لحظة عادية جدًا...
تشبه تلك اللحظات التي نعتقد أنها ستمر بسلام،
ثم نكتشف لاحقًا
أنها غيرت كل شيء.

تأخر ذلك الصباح...

ليس كثيراً ليكون كارثة،

ولا قليلًا ليُغتفر.

ركض في الشارع، قلبه يدق بسرعة

نظر إلى الساعة،

ثم إلى الشارع الفارغ حيث كان يجب أن يكون الميكروباص.

لم يكن هناك.

همس لنفسه: لا... لقد تأخرت.

تنهد، ومشى إلى المحطة الثانية،

تلك التي لم يقف عندها من قبل.

قال في نفسه:

كلها طرق تؤدي إلى العمل.

لم يكن يعلم أن بعضها

قد لا يعيدك أبدًا.

الميكروباص كان ممتلئاً على غير العادة.

جلس قرب النافذة، وقلبه لا يزال يدق بسرعة.

التفت حوله، لم يلتفت لأحد بتمعن، لكنه لمح الركاب الذين يحيطون به:

رأى رجلا ً مائل الجسد، يتنفس بصعوبة.

امرأة كبيرة، تحدق في الفراغ وكأنها نسيت لماذا خرجت من بيتها.

طفل، قدماه لا تصلان إلى الأرض.

رجل آخر، صامت جداً عينيه تحمل دهشة العالم كله.

لم يعرف أسماءهم.

ولم يسأل.

لا أحد يسأل الغرباء عن أسمائهم...

إلا بعد فوات الأوان.

رأى انعكاس صورته على الزجاج أمامه:

شعره الاسود المبلل، وقميصه الازرق الفاتح.

حرك الميكروباص،

اهتزت المقاعد،

وتسلل التعب إليه دون استئذان.

أغمض عينيه.

قال في نفسه:

دقيقة واحدة فقط...

حين فتح عينيه...

لم يكن هناك طريق.

ولا سيارات.

ولا أصوات.

كانت الأرض ممتدة،

خضراء مساحتها شاسعة على نحو غير متوقع .

والسماء أعلى مما يجب.

وفي المنتصف...

شجرة واحدة كبيرة.

أكبر من أن تكون وحيدة.

وأوراقها البرتقالية المائلة الى البني تتساقط ببطء،

كأن الخريف اختارها وحدها.

اقترب.

جلس تحتها،

واغمض عينيه للحظة...

في تلك اللحظة سمع صوت خافت جداً، لم يكن صوتاً واضحاً لكنه كان موجوداً بما يكفي ليجعله ينتبه.

فتح عينيه ببطء و أعاد الإصغاء، عاد الصوت مرة آخرى...

كأنه يأتي من تحت الأرض.

وهناك على بعد خطوات، بدأ يسمع أول أصوات الصندوق المدفون.

لم يستطع مقاومة الفضول، بدأ يحفر بحذر،

بعد دقائق من الحفر، اصطدمت أصابعه

بشيء صلب،

توقف ثم مسح التراب من حوله ببطء،

حتى ظهر صندوق، خشبي، بسيط الشكل ، لم يكن قديماً جداً، ولا جديداً، لكن له حضور مختلف.

أخرج الصندوق ووضعه أمامه.

تردد للحظة، ثم رفع الغطاء، خرجت منه رائحة مختلفة، لم تكن رائحة تراب، بل رائحة شيء يحمل عبء الزمن.

في داخله كان هناك عدة ظروف، كل واحد منه بلون مختلف، يحمل علامة صغيرة،

كأنها خُلقت لتدل على صاحبها دون

أن يشرح شيئاً.

توقفت أصابعه عند ظرفاً واحد.

لم يكن الأعلى، ولا الأوضح، لكن شيئاً فيه جذبه.

كان الظرف بلون باهت يميل إلى الرمادي،

في زاويتها العلوية رمز صغير...
طفل يقف خلف نافذة.
لا يعرف لماذا شعر أن الرمز ينظر إليه أكثر مما ينظر إليه هو.
سحب الورقة من داخله ببطء، كأنها قد تنكسر لو تعجل، حين فتحها لم يشعر أنه يقرأ رسالة كُتبت، بل كأن أحدهم أخيراً بدأ يتكلم من داخله.

« رغم مرور سنواتٍ طويلة،
ما زلت عالقاً في موقفٍ واحد،
كأن الزمن توقف هناك
ولم يتحرك داخلي.
كنت الطفل الوحيد المختلف.
ليس في اسمي،
ولا في صوتي،
بل في لوني.

منذ وقتٍ مبكر
فهمت أن الشارع ليس لي،
وأن الأصدقاء فكرة
لا تخصني.
في المدرسة كنت حاضراً بالجسد،
غائباً بالقبول.
وفي البيت...
كنت أرى أكثر مما يُقال.
كانت أمي تلبس إخوتي،
تُعدل ثيابهم،
وتأخذهم معها.
أما أنا،
فكنت أبقى.
لم تقل لي يوماً إن السبب لوني،
لكن النظرات كانت أوضح من الكلام،
والصمت كان قاسياً بما يكفي
ليعلّمني الحقيقة.

كنت أقف خلف النافذة،

أراقبهم وهم يخرجون،

وأفهم بصمت طفل

أنني مختلف،

وأن هذا الاختلاف

ليس ميزة.

في تلك اللحظات

تعلمت وجعاً مبكراً،

تعلمت أن الحياة

قد تكون قاسية

حتى دون أن ترفع صوتها.

كبرت.

ولم يتغير الماضي،

لكنني تغيرت.

لم أُرزق لوناً يُرضي الجميع،

لكنني أُعطيت ما هو أعمق:

عقلا يفهم، وعياً يرى،

وقوة تعلمتها

من الوقوف وحيداً طويلا.

وما زلت، حتى اليوم،

أحمل ذلك الطفل في داخلي،

وأقسم له كل مرة

أن اختلافه

لن يكون سبب سقوطه.»

وقف خلف الزجاج.

جبينه بالكاد يصل إلى حافته،

فرفع نفسه على أطراف قدميه.

كانت أمه في الخارج،

تُعدل ياقة أخيه،

وتربط حذاء أخته،

وتبتسم.

مد يده نحو الباب،

ثم أنزلها.

لم يُناده أحد.

لم يكن ممنوعاً بالكلمات،

بل مُستبعداً بالنظرات.

رآهم يخرجون،

واحداً تلو الآخر،

ورآها تُغلق الباب خلفها بهدوء،

كأنها تُغلقه على شيء

لا يجب أن يُرى.

بقي واقفاً.

لم يبكي.

لم يصرخ.

فهم فقط.

في تلك اللحظة،

لم يشعر أنه طفل،

شعر أنه خطأ.

ومنذ ذلك اليوم،

كل مرآة مر بها

سألته السؤال نفسه:

لماذا أنا؟

ما قرأته ليس حكاية لون،

بل حكاية طفل تعلم الإقصاء

في المكان الذي يُفترض أن يكون الأمان.

التنمر لا يبدأ في الشارع،

بل حين يرى الطفل نفسه
آخر من يُختار،
وأول من يُنسى.

لا شيء يبرر التنمر،
لا المزاح،
لا الجهل،
ولا العادات.
والأقسى من سخرية الغرباء
هو صمت الأقرباء،
لأن الطفل حينها
لا يتعلم كره الناس فقط،
بل يتعلم الشك في نفسه.

ومع ذلك،
ليس كل من كُسر سقط.
بعضهم تعلم أن يقف وحده،

أن يرى بعمق،

وأن يفهم العالم

قبل أن يفهمه العالم.

هذا الرجل لم ينتصر على لونه،

بل انتصر على الفكرة

التي حاولت إقناعه

أنه أقل.

حقاً أتساءل:

كم طفلا يسير بيننا اليوم،

يحمل جرحاً لم يره أحد،

فقط لأنه لم يُشبه الصورة المقبولة؟

وكم طفل تعلم وجع الحياة

من نظرة لا من كلمة؟

وهل ندرك أن ما نراه "اختلافاً "
قد يكون
أعمق نقاط القوة؟

" بعض الأطفال لا يتألمون
لأنهم مختلفون،
بل لأن العالم
لم يتعلم بعد
كيف يرى الاختلاف."

طوى الرسالة ببطء،

وشعر لوهلة

أن شيئاً داخله انكسر

دون صوت.

لم يبكي،

ولم يفهم ما الذي تأذى بالضبط،

لكنه عرف...

أن ما قرأه

لن يتركه كما كان.

نظر إلى الصندوق مرة أخرى، بين الأظرف برز واحد بلونٍ داكنٍ مائل إلى البني المحروق كالون طريق عبره الكثيرون... ولم يسأل أحد عما تركه في قلبه.

لم يكن الظرف بارز على العكس... كأنه يحاول أن يختفي بين غيره،

لم يكن عليه أسم، فقط أثر خدشاً قديم في الزاوية كأن أحدهم حاول أن يمحو أثره وفشل.

فتحه ببطء.

« وُلدتُ بلا اسم...

لا لأن أمي نسيت أن تُسميني،

بل لأن العالم قرر أن يناديني بلقبٍ لم أرتكبه.

منذ طفولتي، وأنا أتعلم أن أخفض رأسي قبل أن أتعلم كيف أرفعه.

لم أسأل يوماً: لماذا أنا؟

لكنهم كانوا يسألونني كل يوم: من أين جئت؟

كنت طفلا،

لكنهم حملوني ذنباً لم أفهمه.

كل نظرة كانت سؤالا،

وكل همسة كانت محكمة.

لم يضربوني كثيراً،

كانوا أذكى من ذلك...

كانوا يتركون الكلمات تفعل بي ما لا تفعله الأيدي.

كبرتُ وأنا أظن أن الخطأ يسكنني،

أن في دمي نقصاً،

وأن في اسمي فجوة،

وأن علي أن أعتذر... فقط لأنني وُجدت.

لم أطلب أن أكون مثالا،

ولا بطلا،

ولا حتى مفهوماً.

كنت أريد فقط أن أمر... دون أن يرموني بأسئلة.

« أقسم أن أقسى ما يمكن أن يفعله البشر،

أن يُحاسبوك على شيئاً لم تختره. »

تعلمت أن أكون صامتاً،

لأن الكلام كان يفضحني أكثر.

وتعلمت أن أكون قوياً،

ليس شجاعة... بل دفاعاً.

اليوم، لا أطلب شفقة،

ولا أبحث عن اعتذار.

لكن إن مر طفل يشبهني أمامك يوماً،

لا تسأله: من أنت؟

اسأله: كيف حالك...

فقد يكون هذا أول اسم حقيقي يسمعه.

قرأت الرسالة ببطء،

وكأنني أخشى أن أوقظ وجعها إن أسرعت.

أدركتُ حينها أن أقسى ما يفعله البشر

ليس الضرب...

ولا الإهانة...

بل أن يُجبروا إنساناً على تبرير وجوده.

كيف يمكن لطفل،

أو روح هشة،

أن تحمل ثقل ذنب لم ترتكبه؟

ومن أعطانا الحق أن نحاكم الناس على أشياء لم يختاروها؟

تساءلتُ:

هل القسوة تولد فجأة؟

أم أنها تُعلم ببطء،

حين نصمت عن الظلم،

وحين نعتاد رؤية الألم دون أن نسميه؟

ربما نحن لا نحتاج أن نُصلح العالم،

لكن يكفينا أحياناً ...

أن لا نكون جزءاً من قسوته.

"أقسى ما قد يفعله الإنسان بالآخرين

أن يجعلهم يعتذرون عن شيء

لم يكونوا يوماً سبباً فيه."

وضعتُ الظرف الرمادي جانباً،

لكن ثقله بقي في يدي،

كأنني حين لمسته...

لم أعد كما كنت.

مد يده نحو الصندوق ببطء، وأخرج ظرفاً أخر بلونٍ كحلي غامق،

وعلى زاويته رمز لميزان صغير مائل. أخرج الورقة من داخله، كانت مطوية بعناية زائدة وكأن من كتبها حاول تصغير نفسه قدر الإمكان، حين أمسكها لم يشعر بثقل،

بل بشيء اقرب إلى الإعتياد،

ذلك الإحساس الذي يتكون حين تتعود أن تكون دوماً النسخة الثانية،

تنفس ببطء ثم فتح الرسالة.

«كبرتُ في بيت لم يضربني،
لكنه علمني أنني أقل.
لم يُهني بالكلام،
بل بالترتيب.
كان هو الأول دائماً.
الأذكى، الأهدأ، الأقرب،
وأنا...
الذي يجب أن يحاول أكثر
ليُسمح له بوجوده.

حين ينجح، يُكافأ.
وحين أنجح، أُسأل:
لماذا لم تكن أفضل؟

كبرت وأنا أتعلم أن الحب لا يُعطى مجاناً،
وأن القبول يحتاج برهاناً،

وأنني كلما اجتهدت أكثر

ازداد الشبه بيني وبين الغائب.

لم أكن أكره أخي.

كنت أكره المكان الذي وضعوني فيه وأنا أقف إلى جانبه.

تعلمتُ أن أصفق له بيدين مرتجفتين،

وأخبئ خيبتي في جيبي

كأنها عيب. »

في مساء عادي،

اجتمعوا حول الطاولة.

وُضعت شهادة التفوق في المنتصف،

انحنت الرؤوس نحوها كما لو كانت شيئاً ثميناً

يخافون عليه من السقوط.

قال الأب وهو يبتسم:

«تعبك لم يضع هباءً.»

مدت الأم يدها لتعدل إطار الصورة،

وتحدثت عن المستقبل،

عن الفرص،

عن الاسم الذي سيكبر.

كان يجلس إلى الطرف الآخر.

أمامه طبقه،

لم يبرد طعامه،

لكن أحداً لم يسأله إن كان جائعاً.

عندما حاول أن يتكلم،

قاطعته جملة عابرة:

«ليس الآن.»

هز رأسه،

وأعاد ترتيب الملعقة إلى مكانها.

لم يكن غاضباً.

كان فقط

خارج المشهد.

انتهى العشاء،

بقيت الشهادة في المنتصف،

وبقي هو يتعلم

كيف يقف طويلا

دون أن يُرى.

حين انتهيتُ من القراءة،

لم أشعر بالغضب...

شعرتُ بالخوف.

الخوف من بيوتٍ
لا تكسر أبناءها
لكنها تذيبهم ببطء.

الخوف من آباء وأمهات
يظنون العدل هو المساواة في الحب،
وينسون أن القلوب لا تُربّى بالمقارنة.

بعض الناس لا يحتاج صفعة،
يحتاج فقط
أن يُقال له مرة واحدة:
«أنت كافٍ كما أنت.

تساءلتُ بنفسي:
هل يولد بعضنا في العائلة
ليكون دليل نجاح لغيره؟

وهل الظل اختيار...

أم مكان تُدفع إليه

ثم نلام لأننا بقينا فيه؟ »

" حين يُربى الإنسان على المقارنة،

يقضي عمره كله

يحاول أن يثبت

أنه يستحق. "

ما إن طوى الورقة،

حتى تلاشى كل ما كان أمامه،

الوجوه، الطاولة، اللحظة...

كأنها لم تكن سوى فكرة مرت ثم اختفت.

أخرج ظرفاً أخر من الصندوق،

كان الظرف بلونٍ قاتم،

وعلى زاويته مفتاح صغير معلق،

كأنه وُجد ليذكر

أن هناك أبواباً لا يُسمح بفتحها،

حتى لو كان المفتاح في يدك.

كانت الورقة مشدودة عند أحد أطرافها،

كأنها في لحظة خوف،

شُدت ثم تُركت كما هي،

شعر بوخزة خفيفة في صدره،

تلك التي لا تأتي من الألم،

بل من الذاكرة.

تنفس...

كأنه يستعد لسماع شيء

لم يُحك يوماً بصوتٍ عالٍ.

وفتح الرسالة.

« لم انسى.

ولن أنسى،

ولو عشتُ مئة عام.

كبرتُ في بيتٍ كان الذكر فيه امتيازاً،

والأنثى عبئاً يجب تهذيبه.

كنا نُحاسب قبل أن نُخطئ،

ويُسامح هو قبل أن يعتذر.

حين وُلد أخي،

لم يتغير شيء...

بل انكشف كل شيء.

صارت القسوة أوضح،

والتمييز فاضحاً،

وصار الخطأ يُقاس بجنس صاحبه لا بحجمه.

هو يُخطئ فيُغفر له،

ونحن نُخطئ فيُرفع الصوت،

وتُشد القبضة،

وتُذكر كل واحدة منا

بأنها أقل،

وبأن الطاعة قدر.

لكن اليوم الذي انكسر فيه كل شيء

لم يكن صراخاً،

ولا عقاباً،

ولا إهانة عابرة.

كان تهديداً.

نقاش محتد،

كلمة خرجت،

موقف لم يعجب الذّكر المدلّل،

فجاء الرد

بشيءٍ لا يُنسى.

في تلك اللحظة

تعلّمتُ كيف يمكن للخوف

أن يشل الجسد في ثانية،

كيف ترتجف اليد دون إرادة،

كيف ينقطع الصوت

ويتحول النفس إلى شهقةٍ متكسرة.

لم أكن أجادل،

كنتُ أرتجف.

لم أكن أتمرد،

كنتُ أحاول أن أبقى حية.

ذلك اليوم

لم يكن تهديداً في الكلام فقط،

كان سلاحاً مرفوعاً،

موجهاً إلى رأسي،

إلى منتصف جبيني،

كأن حياتي صارت فجأة

نقطة ضغط

يمكن إنهاؤها بقرار.

فقط لأنني لستُ ذكراً.

كبرتُ بعده،

لكنه لم يكبر في داخلي.

ما زال ذلك التهديد واقفاً في ذاكرتي،

كأنه حدث الآن،

كأن الخوف لم يغادر جسدي منذ ذلك اليوم.»

ما حدث لم يكن غضب أب،
ولا لحظة انفعال.
كان درساً قاسياً في الذكورية،
حين تتحول الأبوة إلى سلطة،
وتتحول الحماية إلى تهديد.

الذكر الذي يُدلل على حساب أخواته
لا يُربى على القوة،
بل على الإفلات من المحاسبة.
والأنثى التي تُقمع باسم العائلة
لا تُربى على الأخلاق،
بل على الخوف.

تساءلتُ وأنا أقرأ:

أي أبٍ يرفع سلاحه في وجه ابنته ثم ينام ليلته؟

وكيف يتحول الذكر في بعض البيوت من طفلٍ إلى حصانة؟

وكم فتاة تعيش اليوم وهي تحمل في ذاكرتها تهديداً لا يُرى؟

ومن يُحاسب الخوف الذي يُزرع باسم التربية؟

وأخطر ما في الذكورية

أنها لا تترك كدمات مرئية فقط،

بل تزرع رعباً طويل العمر

لا يشيخ مع الجسد.

" ليست كل البيوت آمنة،

بعضها يعلم أبناءه

أن الخطر قد يأتي

من اليد التي كان يُفترض أن تحمي. "

مد يده داخل الصندوق،

وأخرج رسالة أخرى.

كان لونها داكن، أقرب إلى الأزرق المائل للسواد،

لون يشبه الليل حين لا يكون نوماً،

ولا خوفاً...

بل انتظاراً طويلا.

في زاويته السفلية علامة صغيرة محفورة بخفة،

كأنها أثر ندبة بقيت في محاولة قول شيء

ثم التراجع عنه.

لم يفتحه فوراً.

بعض الرسائل لا تُقرأ،

بل تُستشعر أولا.

وحين لمس الورقة،

شعر أن ما بداخله

ليس حبراً

بل ثِقل أعوامٍ قيل فيها كل شيء
إلا الحقيقة.
تردد للحظة ثم فتحها.

« لم أحتج إلى كلماتٍ كثيرة
لأفهم أنني لست مقبولا.

فهمت ذلك من النظرات،
من الصمت حين أنجح،
ومن القسوة التي كانت تسبق اسمي.

كنت أحاول،
أفعل كل ما يُطلب،
وأحياناً أكثر،

لكن شيئاً ما كان ناقصاً دائماً
في عينيه.

كبرت وأنا أشعر
أن وجودي يحتاج تبريراً،
وأنني مهما فعلت
لن أصل إلى كلمة: "جيد".

لم يكن أبي شريراً،
لكنه كان قاسياً بما يكفي
ليجعلني أصدق
أنني خطأ.

وفي لحظة واحدة،
لم أعد أحتمل.

ليس لأنني لم أعد أحبه،

بل لأن كرامتي

كانت تتآكل بصمت.

خرجت،

لا لأتمرد،

بل لأن البقاء

صار يؤلمني أكثر.»

كان صوته أعلى من الغرفة.

والكلمات أثقل من جسده .

وقف أمامه،

يحاول أن يبتلع الإهانة،

لكنها كانت أكبر من صدره.

حين قال له إن وجوده خطأ،
كان في الخامسة عشرة فقط،
أصغر من أن يفهم القسوة،
وأكبر من أن ينجو منها
لم يسمع باقي الجملة،
توقّف كل شيء عند تلك الكلمة.

اتجه نحو الباب.
لم يكن يعرف إلى أين،
لكنه كان يعرف أنه لا يستطيع البقاء.

أمسكت أمه بذراعه.
كانت تبكي،
وتشده كأنها تحاول إنقاذ شيءٍ
ينفلت منها.

نظر إليها،

وقال بصوتٍ مكسور لا يصرخ:

«تعبت... كرامتي لم تعد تحتمل».

أغلق الباب خلفه،

كان الشارع بارداً،

واسعاً،

ولا يسأل أحداً من أنت.

مرت الليالي ثقيلة.

الأرض فراشه،

والسماء غطاؤه.

كان يجوع،

ترتعش معدته،

لكن يده لم تمتد لأحد.

وحين اضطر للعمل،

وقف على الرصيف

يحمل زجاجات الماء،

لا يطلب شفقة،

بل فرصة.

لم يؤلمه الجوع

كما آلمته العيون

التي لم تر فيه طفلا،

بل حكماً جاهزاً.

في تلك الأيام،

لم يكبر بسرعة،

بل تشقق من الداخل.

هذه القصة ليست عن الهروب،
بل عن طفلٍ دُفع خارج البيت
قبل أن يتعلم كيف يدافع عن نفسه.

لا شيء يبرر إهانة الكرامة،
ولا الأبوة تعطي حق السحق،
ولا القسوة تصنع رجالا.
نعم، الخروج إلى الشارع خطر،
لكن البقاء في بيت
يُشعرك أنك خطأ قد يكون أخطر.

ما حدث هنا
ليس تمرد مراهق،
بل انهيار إنسان صغير
تحت ثقل كلماتٍ أكبر من عمره.

والأقسى

أن بعض الآباء

لا يدركون أن أبناءهم

لا ينسون الجمل

التي قيلت لهم في لحظة غضب.

وأنا أقرأ، تسللت إلى قلبي أسئلة لم أستطع تجاهلها:

كم طفلٍ خرج من بيته

لا لأنه سيئ،

بل لأنه لم يحتمل؟

وهل ندرك أن الكلمات

قد تطرد إنساناً

أبعد من أي باب؟

ومن المسؤول حين ينام طفلٌ في الشارع؟

قراره؟

أم القسوة التي سبقته؟

ولو عاد ذلك الطفل اليوم،

هل سنعرف

كيف نعتذر له؟

" بعض الأطفال لا يهربون من بيوتهم،

بل يُطردون منها

بالكلمات. "

أنهى قراءة الرسالة،

وفجأة خفت الأصوات من حوله،

كأن المشهد الذي كان يراه

انسحب بهدوء وتركه وحده.

لم يغضب.

لم يصرخ.

لم ترتجف يداه حتى.

طوى الورقة مرة واحدة...

كأنه يطوي شيئاً أعمق منها

ووضع الرسالة جانباً،

ليس لأنه انتهى منها،

بل لأنه لم يعد قادراً على حملها أكثر.

مد يده نحو ظرف أخر.

كان لونه بنفسجياً باهتاً،

لون يشبه شعورًا لم يُقال بصوتٍ عالٍ.

وعلى حافته،

رسم رمز نافذة صغيرة نصف مفتوحة،

كأن الرسالة نفسها لم تقرر

إن كانت تريد أن تُقرأ… أم أن تُترك كما هي.

«أحببتُكِ

بطريقة لا تُربكك،

ولا تضعكِ في مأزق،

ولا تطلب منكِ شيئاً.

كنتُ حاضراً

حين لم ينتبه لكِ أحد،

وصامتاً

حين كان قلبي يصرخ.

لم أطلب حبك،
ولا لفت انتباهك،
كنتُ أكتفي
بأن أراكِ بخير.

الوجع ليس أنكِ لم تحبيني،
الوجع
أنكِ لم تشعري بي أصلا.

أن أكون قريباً
إلى هذا الحد
ولا أُرى.»

كانت تجلس أمامه كعادتها،

تتحدث كثيرًا... وهو يستمع.

كانت تحكي عن يومها،

عن تعبها،

عن ضيقٍ لم تفهم سببه.

قالت فجأة: – لا أعرف لماذا أشعر هكذا.

لم يقاطعها.

اكتفى بأن قال بهدوء:

– كل شيء سيمر... أنتِ أقوى مما تظنين.

ابتسمت.

تلك الابتسامة التي جعلته

يؤجل نفسه مرة أخرى.

كان قد رتب الكلماته في داخله،

أعاد صياغتها أكثر من مرة،

كأنها تحتاج شجاعة لا يملكها بعد.

قال لنفسه: الآن... سأقولها.

تحرك قليلًا، اخذ نفسا عميقا،

وقبل أن ينطق...

رفعت هاتفها،

نظرت إلى الشاشة،

قالت بتردد:

– أريد أن أخبرك بشيء... لأنك أقرب شخص لي.

انقبض صدره.

تنفّست، ثم قالت: – هناك شخص... بدأت أشعر بشيء نحوه.

توقف الهواء للحظة.

لم يتحرك.

لم يتغير صوته.

ظل ثابتاً كمن يتعلم كيف يبتلع وجعه بهدوء.

تابعت: — لا أعرف إن كان حباً، لكنني أفكر به كثيراً،
— أحتاج رأيك.

سألها عن التفاصيل،

استمع للاسم،

للمواقف،

للتردّد.

كان يعرف،

أن كل سؤال يسأله

يُبعده خطوة عن نفسه.

وحين أنهت كلامها،

قال فقط:

– إن كان يُشعرك بالطمأنينة... فلا تترددي.

ارتاحت.

ابتسمت،

وشكرته كمن يشكر صديقًا طيبًا.

ثم نهضت،

لوحت له،

ومضت.

بقي مكانه.

لم يقل ما أراد قوله.

تركها معلقة في صدره،

كما تُترك رسالة

لم يعد لها عنوان.

مد يده إلى كوب القهوة،

وجده بارداً تماماً.

تذكر عندها فقط

أنّه طوال الوقت

كان يهدئ قلباً ليس له.

ليس كل حب يؤذي لأنه رُفض،

بعضه يؤلم لأنه لم يلاحظ.

ذلك النوع الذي لا يفرض نفسه،

ولا يطالب،

ولا يرفع صوته.

كم من مشاعر صادقة

مرت بجوار القلوب

دون أن تُرى؟

وكم من أشخاص

اختاروا الحضور الصامت

فحسبهم الآخرون غياباً؟

لسنا دائماً مسؤولين

عن أن نُحب من أحبنا،

لكننا مسؤولون

عن أن نرى.

أن ننتبه.

أن لا نترك إنساناً

قريباً إلى هذا الحد

يشعر أنه لم يكن موجوداً أصلا.

فالحب الذي لا يُلاحظ
لا يقل صدقاً،
بل يزيد وجعاً.

" أقسى أشكال الحب
أن تمنح قلبك بهدوء،
فتُتجاوز لا لأنك لا تستحق،
بل لأنك لم تُحدث ضجيجاً.»

سكت كل شيء للحظة.

كأن المكان التقط أنفاسه قبل أن يُكمل.

لم يكن حزناً واضحاً،

ولا راحة...

كان فقط شعوراً خفيفاً

يشبه أن تكتشف فجأة

أن قلبك كان واقفاً وحده طوال الوقت.

مد يده نحو الظرف التالي. كان مختلفاً عن سابقيه.

لونه أبيض باهت، ليس ناصعاً، ولا متسخاً

في منتصفه، رمز خاتم مكسور. ،

لم يحمل الخاتم نقشاً واضحاً،

لا تاريخاً، ولا اسماً.

فقط أثر دائرة لم تكتمل، يوحي بوعدٍ توقف قبل أن يُقال.

تنفس،

ثم فتحها.

« الخذلان لا يأتي دائمًا من الغرباء...

أحيانا يصل مرتديا وعدا.

أربع سنوات

ونحن نقاتل من أجل حبنا.

نواجه الاعتراض،

نُسكت الشكوك،

ونقنع العالم

أننا نستحق هذا اليوم.

كنتُ أعد الساعات

لا لأتزين،

بل لأطمئن
أننا انتصرنا.

وفي ليلة الزفاف،
انهار كل شيء
بسبب سوء فهم
صُنع على عجل،
وكلمات
لم تُسأل،
وحكاية
لم تُسمع.

صدقوا كل شيء
إلا قلبي.
واختار هو
أن يصدقهم.

لم يُواجهني،

لم يسألني،

لم يمنحني دقيقة

لأشرح،

ولا ثانية

لأتنفس.

خلع الخاتم،

وغادر القاعة،

وترك خلفه

كل ما حلمنا به،

وكل ما كنتُ أظنه

حباً لا ينهار.

لم ينكسر قلبي لأنه رحل،

بل لأنه لم يمنحني

حق الدفاع عن نفسي.

لأنه ترك أربع سنوات

خلفه دفعة واحدة،

كأنها لم تكن عمراً،

ولا حباً،

ولا حلماً انتظرناه معاً.

مضى

وكأن كل ما عشناه

كان وهماً

تعلمتُ تصديقه وحدي.»

وقفت بين الورود البيضاء،

تلمس أطراف الفستان بأصابع مرتجفة،

وتبتسم كلما التقت عيناها بعينيه.

حين دخل،

لم ترى القاعة،
رأت وجهه فقط.
اقترب منها،
مد يده،
فشدت على أصابعه
كأنها تمسك العمر.

انحنى وقبل جبينها.
نظرت إليه،
ابتسم لها، تلك الابتسامة
التي كانت تعني دائماً:
«نحن بخير».

ثم تغيّر كل شيء.

لاحظت همساً في الزاوية،

نظرات سريعة،

كلمات لم تُسمَع كاملة،

لكن ثقلها وصل.

خرج لدقائق.

ثم عاد...

لكن ليس هو.

وقف أمامها،

عيناه لا تثبتان،

وكلماته تتعثر في فمه.

قال جملة قصيرة،

غير واضحة،

لكنها كانت كافية

لإسكات قلبها.

مد يده،

خلع الخاتم،

ووضعه في كفها

كما يُعاد شيء لم يعد مرغوباً.

حاولت أن تتكلم.

لم يسمع.

حاولت أن تقترب.

ابتعد.

غادر القاعة بينما الموسيقى مازالت تعزف.

بقيت واقفة

في مكانها،

وسط حلم لم يكتمل،

والدمعة التي نزلت من عينها

لم تُصدر صوتاً،

لكنها كانت أعلى من كل شيء.

أي حب هذا

الذي يسقط

أمام أول شك؟

ربما لا يؤلم الفقد

بقدر ما يؤلم

أن تُدان

دون أن تُسمع.

ومنذ متى

كان الصمت دليل إدانة؟

ومن أقنعنا
أن الرحيل أسهل
من المواجهة؟

ليست كل القلوب
تحتمل أن تُكسر
أمام جمهور،
ثم يُطلب منها
أن تكون قوية.

" أوجع الخيبات
تلك التي تأتي
من شخص وعدك أنهُ لا يشبه أحداً. "

ساد الصمت فجأة،

كأن المشهد انطفأ دون أن يُغلق بابه تماماً.

تلاشت الأصوات من حوله،

لكن صدى الكلمات ظل عالقاً في صدره،

كأنها لم تُقل... بل استقرت.

لم يعد يرى شيئاً أمامه،

ومع ذلك شعر بأن الصورة ما زالت هناك،

معلقة في الهواء،

تعيد نفسها بصوتٍ أخف،

كأثر الموسيقى التي انتهت

لكن أذن القلب ما زالت تسمعها.

مدّ يده بتردّد،

لم يكن متأكداً إن كان يريد الهروب

أم المواجهة،

ثم لمس ظرفاً آخر...

وكأن ما قرأه لم ينتهِ بعد،
بل كان مجرد بداية.

كان الظرف بلونٍ عنابي داكن،
لون يشبه أثر الشعور حين يبرد،
لا يختفي... لكنه لا يعود كما كان.
وعلى زاويته العلوية،
رُسم فنجان قهوة صغير بخط خافت،
تردد للحظة....
ثم فتحه.

« كنتُ أنتظر...
لا لأنني ساذجة،
بل لأنني صدقت الصمت.

كنتُ أفسر غيابك
على أنه انشغال،
وبرودك
على أنه تعب،
وتأخرك
على أنه خوف من الاعتراف.
كنتُ أرقع خيبتك في داخلي
كي لا أراك سيئًا.

أتعلم؟
الانتظار لا يقتل فجأة،
الانتظار يُدربك على الموت ببطء.
أنت لم تخذلني حين رحلت،
خذلتني.

حين تركتني أرتب لك الأعذار
وأنت لم ترتب لي كلمة واحدة.»

أصعب أنواع الغياب
أن يختفي من يملك حق البقاء.

أن يقرر وحده
أن يخرج من المشهد
ويتركك تواجه الأسئلة نيابةً عنه.

متى أصبح الصمت خياراً مشروعاً
في علاقة يُفترض أنها أمان؟

ومتى صار الاختفاء

أخف من المواجهة؟

لسنا نطلب بقاءً قسرياً، نطلب فقط نهاية لا تُهين كل ما سبقها.

" الرحيل حق، لكن الصمت خيانة.

فبعض القلوب لا تنكسر لأنك غادرت،

بل لأنك غادرت دون أن تترك لها كرامة الفهم. "

أمسك الظرف هذه المرة بترددٍ غريب،

كأن يده تعرف مسبقاً أن ما بداخله

لن يمر بسلام.

كان لونه أسود مائل إلى الأزرق،

ليس سواد الحزن،

بل ذاك السواد الذي يسبق العاصفة...

ثقيل، صامت، ويُربك النظر.

مرر أصابعه عليه ببطء،

فشعر بخشونة خفيفة عند الحواف،

كأن الورق نفسه متشقق من الداخل،

في منتصف الظرف،

كان هناك رمز صغير... مرآة متشققة.

ليست مكسورة بالكامل،

لكن الشرخ في قلبها واضح،

توقف لحظة.

تنفس بعمق،

ثم... بدأ يقرأ.

« لم أبكي حين عرفت.

ضحكت...

وهذا ما أرعبني.

ضحكت لأن المشهد

كان أوضح من أن يُنكر،

ولأن الشخص الذي خانني

لم يكن غريباً،

كان صديقي الأقرب.

ذلك الذي يعرف

بيتي،

وضعفي،

وأسراري التي لم أقلها لأحد.

أما هي...

فلم تأخذ منها الخيانة جهداً.

كانت تعرف أين أضع ثقتي،

وأين أغمض عيني.

كنتُ أراجع نفسي،

ألوم غيرتي،

أدافع عنهما،

وأقنع قلبي

أن الشك قبح.

الخيانة لم تأخذ شخصاً فقط،

أخذت قدرتي

على الاطمئنان.

كيف أمد يدي بعدها؟

وكيف أصدق

أن القرب لا يجرح؟ »

كان النهار عادياً أكثر من اللازم.

الشارع مزدحم،

ولا شيء يوحي بأن شيئاً سيتغير.

توقف فجأة.

تذكر أنه نسي شيئاً في مكان عمل صديقه.

قال لنفسه: دقائق وأعود.

دخل المكان.

الضحك سبق رؤيته.

في الداخل،

كانت الموسيقى خفيفة،

والمكان مزيناً كأن أحدهم يحتفل بشيء ما.

أضواء صغيرة،

أكواب على الطاولات،

ووجوه مرتاحة.

رآها أولا.

كانت واقفة قربه.

قريبة أكثر مما يجب.

لم تنتبه له.

كانت تضحك،

تضع يدها على ذراعه

كأنها تفعل ذلك منذ زمن.

صديقه كان يميل نحوها،

يتحدث بهدوء،

وعيناه لا تبحثان عن أحد.

في لحظة قصيرة،

وضعت رأسها على كتفه.

لم يكن عناقاً كاملا،

لكنه لم يكن بريئاً.

تلاقت عينا صديقه بعينيه.

تجمد الاثنان.

أما هي،

فالتفتت بعد ثانية متأخرة.

لم تصرخ.

لم تبتعد.

اكتفت بأن تنزل يدها ببطء.

لم يقل شيئاً.

لم يقترب.

لم ينسحب فوراً.

وقف هناك

كأنه يشاهد مشهداً

تدرب عليه كثيراً في خياله

ولم يصدق يوماً أنه سيحدث.

لم يؤلمه ما رأى

بل كيف بدا طبيعياً.

ثم استدار،

وخرج....

لكن المشهد بقي واقفاً بداخله.

الخيانة ليست نوعاً وحداً.

خيانة الحبيب تؤلم،

لكن خيانة الصديق

تُربك الفهم كله.

وربما لا تؤلم الخيانة

لأنها حدثت،

بل لأنها تُجبرنا

أن نعيد النظر

في قدرتنا على الاختيار.

لكن السؤال الذي يبقى:

هل كان الوجع في الفعل،

أم في السنوات التي سبقته

ونحن نُقنع أنفسنا

أن الشك خُلُق سيئ؟

وكيف نعيد تعريف القرب

بعد أن يطعننا من كنا نأمنه؟

" الخيانة لا تكسر القلب فوراً..
هي تعيد ترتيب كل الذكريات
بشكل مؤلم. "

كانت هذه الورقة ثقيلة،
لا لأن كلماتها كثيرة،
بل لأن الحقيقة
حين تُكتشف متأخرة
تُثقل اليد.
طوى الورقة ببطء،
ووضعها جانباً كما لو أنه يخشى أن يوقظ ما كُتب فيها.
عاد المكان إلى صمته من جديد،

الضجيج الذي كان قبل لحظات ممتلئاً بالوجوه
والأصوات
انسحب فجأة،
كأن أحداً أطفأه من الداخل لا من حوله.
لكن المشهد لم يغادره.
ظل عالقاً في صدره،
يتنفس معه،
كأن ما رآه لم يكن ذكرى أحدهم ...

بل غرفة لم يغادرها هو بعد.
مد يده ليأخذ رسالة أخرى،
ثم توقف.
ليس لأنه تردد،
بل لأنه أدرك أن بعض المشاهد
لا تنتهي عندما تنتهي،
بل حين تتعب من حملها فقط.

أخرج طرفاً أخر من الصندوق،

كان لونه داكناً،

وعلى زاويته

رمز زر صغير مقطوع،

كأن الرسالة تقول :

شيء واحد سقط... فانهار كل ما بعده.

أمسكه بين أصابعه،

شعر بخشونته،

كأن الورق نفسه تعب من حمل ما كُتب عليه.

لم يعرف بعد ما الذي ينتظره في الداخل،

لكنه شعر أن هذه ليست رسالة اعتذار،

ولا تبريراً ...

كانت أقرب إلى اعترافٍ متأخر،

خرج من امرأة

أُجبرت أن تختار بين قلبها

وبين حياة لم تُشبهها يوماً.

تنفست بعمق،

وفتح الرسالة.

« لم أكن خائنة بالمعنى الذي يسهل علي التهرب،

ولا أقول ذلك لأبرر نفسي.

نعم، خنت.

لكن الخيانة لم تبدأ بالفعل،

بدأت حين عشت حياة

لم يخترها قلبي.

كنت أحب إنساناً،

وفي عمرٍ مبكر

أُجبرت على تركه.

قيل لي إن الحب يزول،

وإن العشرة تكفي،

وإن الرجل الجيد

يصنع قلباً مع الوقت.

تزوجت رجلا محترماً،

لم يقصر،

ولم يخذل،

لكن قلبي

لم يلتفت له يوماً.

وهنا الحقيقة المؤلمة:

مهما كان الإنسان كاملا،

إذا لم تملأ العين،

ولم يستجب القلب،

فلن تستطيع تقبله،

ولو امتلك الدنيا بين يديه.

حاولت أن أكون عادلة،

أن أقنع نفسي،

أن أغلق الماضي،

لكن الشعور الذي دُفن

عاد.

لم أبحث عن سقوط،

ولا أردت خيانة جسد،

ما حدث

كان خيانة إحساس،

وثقة.

وحين انكشف كل شيء،

لم أواجه بالغضب،

بل برحيلٍ صامت

كان أثقل من أي صراخ.

بعدها فقط،

فهمت أن بعض الأخطاء

لا تدمرنا وحدنا،

بل تسحب منا

أغلى ما نملك.»

جلست على الأرض،

وأمامها صورة طفلها.

كانت تبكي بصمت،

وتفتح كيساً صغيراً أخرجت منه قطعة من ثيابه.

قربتها من وجهها،

كأنها تبحث عن أثرٍ ما.

لم تكن رائحة طفل،
بل رائحة وقتٍ توقف.

مررت القماش على خدها،
ثم ضمته إلى صدرها.
ضغطت عليه بقوة،
كأنها تحاول أن تعصر منه صوتاً.

همست:
«قلُها… مرة واحدة فقط.»
لم يجب أحد.

منذ أشهر
لم تسمع وقع خطواته،
ولا ضحكته القصيرة،
ولا ذلك النداء الذي كان يسبق كل شيء:
«ماما».

رفعت رأسها،

نظرت إلى السقف،

وقالت بصوتٍ مبحوح لا يسمعه أحد:

«كنت أستحق الألم...

لكن ليس هذا.»

انحنت أكثر،

التصقت بالأرض،

وبقيت هكذا،

أماً تمسك الفراغ

وتحاول أن تتذكر

كيف كان صوت الحياة

حين كان ابنها هنا.

ما حدث ليس مبرراً للخيانة،
فالخيانة تظل خيانة مهما اختلفت دوافعها،
لكن الجذور لا يمكن تجاهلها.

تُخطئ القلوب حين تُمنع من الاختيار،
وحين يُغلق الأهل على بناتهم باب الحب باسم "المصلحة"
ولا يدركون أنهم يفتحون باباً آخر للخسارة.

كانت الفتاة ضحية لقراراتٍ لم تُشارك فيها،
ورغم ذلك، حملت وزر النتيجة وحدها.
لكنها أيضاً أخطأت حين ظنت أن الحنين يُشفى بلقاء،
وأن الماضي يمكن أن يرمم الحاضر.

الوجع لا يمنح إذناً بالخيانة،
لكنه يشرح الطريق إليها.

وحين تفقد المرأة صوتها،
يبدأ قلبها بالحديث في الخفاء.

في النهاية، لا منتصر هنا:
لا الزوج، ولا المرأة،
ولا حتى ذلك الحبيب البعيد.
فالخسارة كانت واحدة،
وكان اسمها الابن.

وأنا أقرأ، خطر ببالي أكثر من سؤال:

هل يمكن للحب أن يبرر الخطأ؟
أم أن الخطأ، مهما كان سببه، يبقى سقوطاً؟

هل نلوم من خان،
أم من دفعه إلى زواجٍ بلا روح؟

هل نستطيع أن نغفر لأنفسنا
حين نرى أثر أفعالنا على من نحب؟

وهل يشفى القلب حقاً،
أم يتعلم فقط كيف يعيش بنصفه المكسور؟

" لم أخسر حين خنت،خسرتُ حين صدقتُ
أن الحياة تبنى بلا قلب. "

وفجأة... خف كل شيء.

كأن الصوت الذي كان يملأ المكان انسحب بهدوء،

كان المشهد ما يزال عالقاً داخله،

شعر وكأنه خرج من جسده للحظة،

يراقب امرأة تجلس وحدها،

تحضن الغياب،

وتحاول أن تتذكر

كيف كان الصوت الذي يناديها: ماما.

ثم عاد كل شيء مكانه...

إلا قلبه.

بقي هناك،

في تلك الزاوية التي لم تُغلق بعد.

مد يده للصندوق ببطء وأمسك ظرفاً أخر،

لا بدافع الفضول،

بل كمن يعرف أن ما سيلمسه سيؤلمه… ومع ذلك يلمسه.

الظرف كان بلونٍ داكنٍ مائل إلى الأزرق،

لون يشبه لحظة ما قبل البكاء،

حين تختنق الكلمات ولا تسقط الدموع بعد.

في زاويته علامة صغيرة،

رمز يشبه شرخاً رفيعاً في زجاج قديم—

ليس مكسوراً تماماً،

لكنه لم يعد سليماً كما كان.

توقف لحظة.

كأن يده تعرف أن ما بداخل هذا الظرف

ليس اعتذاراً عادياً …

بل اعترافاً متأخراً،

ووجعاً كُتب بعد فوات الأوان.

ثم…

فتح الرسالة.

« أرجوكِ...

لا أطلب أن تنسي،

ولا أطلب أن تبرري،

أطلب فقط

فرصة.

منذ رحيلكِ

والأيام ثقيلة،

البيوت لا تشبه البيوت،

والصمت أطول من قدرتي على الاحتمال.

أعلم أنني أخطأت.

وأعلم أنني خنت.

وأعلم أن الخيانة

لا تمحى بالندم.

لكنني ندمت

كما لم أندم في حياتي.

بعدكِ

اكتشفتُ كم كنتِ

المكان الوحيد

الذي يشبهني.

تركتِ فراغاً

لم يملأه أحد،

لا امرأة،

لا اعتذار،

ولا ألف محاولة نسيان.

كنا جميلين معاً ...

لا أنكر ذلك.

كنتِ أماناً

وأنا أضعته بيدي.

غلطتي دمرت كل شيء،
لكنني مستعد
أن أبدأ من الصفر،
أن أزرع الحب من جديد،
حتى لو استغرق عمراً
ليثمر.

أعدكِ
سأحاول بكل الطرق
أن أكون الرجل
الذي لم أكنه
حين كان يجب
فقط فرصة واحدة أرجوكِ.»

الخيانة خطأ لا يُغفر بسهولة،
ولا يجب أن يُقدم على أنه لحظة ضعف عابرة.

المؤلم في مثل هذه الرسائل
ليس الخيانة ذاتها،
بل أن الوعي جاء متأخراً.

أن تُدرك قيمة الإنسان
بعد أن نخسره،
وأن نطلب فرصة
بعدما كسرنا الشيء الوحيد
الذي لا يُرمم بسهولة: الثقة.

نعم، الندم حقيقي،
وقد يكون موجعاً وصادقاً،
لكن الصدق وحده

لا يعيد الأمان،

ولا يشفي من عاش الخذلان.

أحياناً لا تكون المشكلة

أننا أخطأنا،

بل أننا أخطأنا مع من أحبنا بصدق،

ومع من لم يكن يملك

رفاهية تحمل خسارة أخرى.

تساءلت وأنا أقرأ:

لماذا نستهين بمن يحبنا، ونرتجف فقط حين يرحل؟

لماذا نؤجل الوفاء، ثم نطالب بالغفران؟

وهل الندم كافٍ إذا كان ثمنه قلباً تعلم كيف يعيش وحده؟

كم من الخسارات كان يمكن تجنبها لو احترمنا الحب في وقته؟

وهل كل من يطلب فرصة... يستحقها فعلًا؟

" أقسى الندم
هو الذي يأتي
حين لا يعود للحب
مكان. "

أنهى القراءة ببطء...

لا لأن الكلمات انتهت،

بل لأن شيئاً في داخله احتاج وقتاً ليقف من الصدمة.

كان الشعور مختلفاً هذه المرة.

ليس حزناً فقط،

بل ثِقلٌ غريب...

كأن صدره امتلأ بأصوات لم تُسمع،

بصرخات حُبست طويلا ً خلف جدران البيوت

وتحت أسماءٍ مقدسة كـ العائلة و الستر.

أغمض عينيه لحظة،

وشعر أن القصص لم تعد تُقرأ...

بل تُحمل على الروح.

كان يعرف هذا الوجع،

ذاك الذي لا يأتي من غريب،

بل من يدٍ كان يُفترض أن تحمي.

مد يده إلى الظرف التالي.

توقف قبل أن يلمسه.

كان مختلفاً.

لونه أحمر داكن مائل إلى البني،

كلون جرحٍ قديم جف دمه

لكن أثره ما زال واضحاً على الجلد.

في أعلاه رمز على شكل كف مفتوحة

متوقفة في الهواء...

كأنها لحظة الضربة قبل أن تقع،

تردد للحظة.

شعر أن ما بداخل هذا الظرف

لن يكون اعترافاً عادياً،

بل شهادة...

امرأة لم تُكسر لأنها ضعيفة،

بل لأنها وُضعت وحيدة

في مواجهة من كان يجب أن يكون درعها.

تنفس بعمق،

ثم فتح الظرف ببطء،

كمن يفتح باباً يعرف

أن ما خلفه لن يتركه كما كان.

« لم أكن ضعيفة حين سامحتك،

كنتُ مرهقة.

المرهقون يسامحون

لأنهم لا يملكون طاقة للكراهية.

سامحتك

لأنني أردت أن أنام بسلام،

لا لأنك استحققت.

سامحتك

وأنا أعرف

أنك ستؤذيني مرة أخرى،

لكنني كنت أريد أن أثبت لنفسي

أن قلبي

ما زال إنساناً

ولم يتحول إلى نسخة قاسية منك.

لقد سامحتُك

لأنني نبيلة...

لا لأنك بريء. »

كانت جالسة أمامه

يدها ترتجف،

قالت الاسم بصوتٍ مكسور،

لم ترفعه،

كأنها تخجل من الجريمة

التي لم ترتكبها:

لم تقل ماذا فعل ابن عمها،

لم تحتج.

كانت الكلمة وحدها كافية،

والارتباك في صوتها

كان اعتراف الألم.

اقتربت منه خطوة،

ثم سقطت على ركبتيها

قبل أن تكمل الجملة.

كانت تبكي،

وتقول وهي تتشبث بطرف ثوبه:

«أبي... صدقني...

أقسم لك...

لم أفعل شيئاً.»

لكن يده سبقتها.

أمسك شعرها بعنف،
شد رأسها إلى الأعلى
كما يُرفع شيء يُراد كسره،
وسقطت الكلمات من فمه
أقسى من الضرب.

لم يسأل.
لم يسمع.
لم يفكر.
الضرب كان أسرع من العقل،
والاتهام أعلى من الحقيقة.

كانت تتوسل،
تحاول أن تحمي رأسها بذراعيها،
وتكرر الجملة ذاتها
بين شهقة وأخرى:

«أنا ابنتك...

أنا مظلومة...

أرجوك صدقني.»

لكنه كان ينزع عنها كل شيء

مع كل كلمة.

اسمها.

كرامتها.

انتماءها.

قالها بوضوحٍ بارد

وهو ينهال عليها:

«أنا متبرئ منك.»

لم تتوقف يده،

وكأن الضرب

كان الطريقة الوحيدة

ليُسكت خوفه هو.

وفي لحظة ما
لم تعد تشعر بالألم،
صار جسدها ثقيلا،
وصوتها خافتاً،
وعيناها تنظران إلى الفراغ.

لم تعد تطلب أن يصدقها،
كانت فقط تنتظر
أن يتوقف.

في تلك الليلة
لم تُكسر الفتاة وحدها،
انكسر البيت،
الذي يُفترض أن يحمله الأب.

ومنذ ذلك اليوم

لم تعد تخاف الحقيقة،

بل تخاف

أن تقولها.

أي أبٍ هذا

الذي حين جاءت ابنته مكسورة

لم يسأل: من كسركِ؟

بل سأل: كيف تجرأتِ أن تنكسري؟

متى صار الشرف

أضعف من الحقيقة؟

ومتى صار الصمت

أنبل من إنقاذ دمٍ ينادي؟

كيف استطعت أن تصدق القريب
تكذب اللحم الذي خرج منك؟
كيف رفعت يدك
وأنت أول من كان يجب أن يكون درعاً؟
ثم...
أي قلبٍ هذا
الذي بعد كل هذا
اختار أن يسامح؟

تساءلت:
هل كان التسامح قوة؟
أم كان آخر ما تبقى
من فتاة تعبت من المقاومة؟
وهل نسامح
لأن الآخر استحق،
أم لأننا لم نعد نحتمل
حمل الكراهية فوق الجرح؟

كم من بنتٍ

سامحت لا لأنها شُفيت،

بل لأنها أرادت

أن تنجو بنفسها

من التحول إلى نسخةٍ قاسية

ممن آذوها؟

وهل يدرك من خذل

أن العفو ليس تبرئة؟

وأن الصفح

لا يعني النسيان،

بل يعني أن الضحية

اختارت الحياة

رغم كل شيء؟

" ليست كل الجراح موجعة،

الأشد وجعاً

ما جاء من يدٍ

ظنناها أماناً. "

طوى الورقة بهدوء،

اختفى كل شيء فجأة من حوله،

الضرب، الصرخات، الصمت القاسي... كأنها لم تكن،

وضع الورقة جانباً

وكأن الكلمات التي قرأها

لم تسقط على الورق،

بل سقطت عليه هو.

توقف عند سطر واحد

طويل... خانق...

أب يرفع يده بدل أن يفتح صدره.

في تلك اللحظة

أدرك أن بعض القصص

لا تُقرأ...

بل تُصدم بها الروح.

ومد يده إلى الظرف التالي

لا بدافع الفضول،

بل لأن الصمت صار أوجع

من أي حقيقة قادمة.

كان الظرف هذه المرة أغمق من غيره.

ليس سواداً خالصاً ... بل لوناً يشبه الأزرق حين يختلط بالليل، كأن أحدهم غمسه في ذاكرة قديمة ولم يتركه يجف تماماً.

مرر إصبعه على الحافة،

كان ملمس الورق ناعماً أكثر مما ينبغي،

كأنه يخفي شيئاً قاسياً خلفه.

على الزاوية السفلى،

كان هناك رمز صغير:

مفتاح قديم، سنه.

لم يحتج إلى تفسيره.

بعض الرموز لا تُفهم، تُستعاد.

تردد لحظة،

ليس خوفاً من القراءة،

بل لأن في داخله إحساساً

أن هذه الرسالة لا تُفتح...

بل تُوقظ.

ثم فتحها.

« أبلغ الثلاثين،
ومع ذلك ما زلت أقف عند بابٍ لم أُغلقه منذ الطفولة.
هناك شيء حدث في السابعة،

شيء لم أفهمه حينها،
لكنني حملته معي ككسرٍ صامت
يكبر كلما كبرت.

لم أفقد أبي دفعة واحدة،
فقدته على مراحل،
في صوته،
في وجهه،
وفي نظرةٍ لم تحتمل أن أراها طويلا.

أعرف اليوم أن الموت
لا يأتي فجأة،

بل يقف قريباً،

ويراقب،

حتى نراه نحن.

وما زلت، بعد كل هذه السنوات،

حين أتذكر تلك اللحظة،

أعود طفلا ً

لا يعرف لماذا انتهى كل شيء

بهذه الطريقة.

كان الممر أطول مما يتذكر.

ليس لأنه طويل فعلا،

بل لأن خطواته كانت قصيرة،

وثقيلة،

كأن الأرض لا تريد أن توصله.

كان يمسك باقة الورد بيديه الصغيرتين.

الألوان زاهية،

تفوح منها رائحة لا تشبه المكان،

رائحة حياة دخلت خطأً إلى مستشفى.

كان ينظر إلى الورد أحياناً،

ثم يرفع عينيه إلى أمه.

كلما اقتربا،

صار الصوت أعلى:

أقدام مسرعة،

أصوات أجهزة،

همسات متقطعة لا يفهمها.

أراد أن يسأل،

لكن صوته لم يخرج.

توقفا أمام الغرفة.

الباب مفتوح.

دخل أولا.

الغرفة فارغة.

نظر إلى السرير،

إلى الوسادة،

إلى المكان الذي كان يجلس عليه أبيه حين يبتسم له رغم التعب.

استدار ببطء.

رأى باباً آخر مفتوحاً.

اقترب خطوتين.

ثم توقف.

في الداخل،

كان سرير أبيض.

وعليه جسد مغطى بالكامل.

لم يفهم في البداية.

ظل واقفاً،

ينتظر أن يتحرك الغطاء،

أن يسمع صوتاً،

أي صوت.

رأى الممرضين.

حركاتهم بطيئة،

كأنهم يخافون أن يوقظوا أحداً.

رفع أحدهم الغطاء قليلا.

لمح وجه أبيه من زاوية بعيدة،

لم يكن كما عرفه.

كان شاحباً،

ساكناً،

لا يشبه الصوت الذي كان يناديه باسمه.

في تلك اللحظة،

لم يفهم الموت.

فهم فقط أن أباه

لن يفتح عينيه.

سقطت باقة الورد من يده.

تناثرت على الأرض،

وبقي هو واقفاً ثانية واحدة،

جلس على الأرض.

ثم صرخ.

صرخة واحدة،

خرجت من مكان لم يكن يعرفه في داخله.

مد يديه نحو السرير،

حاول أن يقترب،

أن يلمس،

أن يتأكد.

أمسكت أمه به بسرعة.

شدته إلى صدرها.

كانت تبكي.

بصمت في البداية،

ثم بصوت مكسور.

كان يضرب بيديه،

يحاول الإفلات،

يصرخ باسم أبيه،

ولا يسمع جواباً.

احتضنته أمه بقوة،

كأنها تحاول أن تمنعه من السقوط معها.

في ذلك الممر،

على تلك الأرض الباردة،

مات الأب،

وكبر الطفل فجأة،

وبقي الورد وحيداً

على الأرض.

ليست الخسارة في الموت نفسه،

بل في اللحظة التي نراه فيها أوّل مرة

ولا نملك لغة لفهمه.

الطفل لا يعرف معنى النهاية،

لكنه يشعر بها في جسده،

في رجفة مفاجئة،

وفي فراغٍ لا يشبه أي فراغ آخر.

ما حدث في الطفولة
لا يبقى هناك،
بل ينتقل معنا،
يغير طريقة كبرنا،
ونظرتنا للأمان،
وثقتنا بأن الأشياء يمكن أن تبقى.

بعض الآباء لا يرحلون فقط،
بل يتركون أبناءهم
أكبر من أعمارهم.

تساءلت وأنا أقرأ:

هل الموت حدثٌ واحد،
أم سلسلة لحظات نتعلم فيها الفقد بالتدريج؟

وهل الطفل الذي يرى الموت
يكبر فعلا،
أم يظل عالقاً عند تلك اللحظة
وينضج جسده فقط؟

لماذا لا نتذكر الألم كاملا،
لكن نتذكر الشعور
بوضوحٍ لا يبهت؟

وكم من إنسان بالغ
ما زال يحمل داخله
طفلا ً لم يفهم
لماذا انتهى كل شيء فجأة؟

" بعض الكسور لا ترى،
لأنها حدثت
قبل أن نعرف
كيف نصرخ. "

سكنت الأصوات حوله فجأة: صرخات الطفل، نحيب
الأم... اختفى كل شيء من حوله حتى المكان،
وعاد أمامه الصندوق، الهدوء يحوطه، وكأن المشهد كله
بقي مختبئاً داخل الورقة فقط.
لم يُغلق الورقة فوراً،
وضعها جانباً وكأن يداه لم تعد قادرة على حملها.
لم يشعر بالحزن كما توقع،
كان الشعور... أعمق.

شيء يشبه الفراغ

الذي يتركه شخص غادر قبل أن نتعلم كيف نودعه.

لم يبكي.

لكنه شعر بأن شيئاً فيه

انكسر بصمت.

كأن الفقد لا يأتي ليؤلم،

بل ليُعلم الجسد

كيف يحمل غياباً

طوال العمر.

مد يده للصندوق وأخرج ظرفاً أخر،

كان الظرف أثقل مما يبدو.

ليس بثقله الورقي، بل بما يحمله من زمنٍ لم يُعش كما يجب.

كان لونه رصاصي باهت،
وفي منتصفه رمز صغير لساعة متوقفة.
حين أمسكه، شعر أن الوقت نفسه عالق بين أصابعه…
كأن الساعة التي داخله توقفت منذ سنوات،
عند لحظة لم يُسمح له فيها أن يكون طفلا ً.

لم يكن في الظرف شكوى،
بل شيء أشبه بالتحمل الطويل…
ذاك النوع من الصمت الذي يتكون حين يتعلم الإنسان
أن يحمل العبء وحده،
دون أن يسأل لماذا.
أدار الظرف بين يديه ببطء،
كأن فتحه سيعيد عقارب العمر خطوة إلى الوراء،
إلى حيث بدأت المسؤولية قبل أن يبدأ الفهم.
ثم…
فتح الرسالة.

« لم أعرف أبي كي أفتقده،
لكنني عرفت غيابه باكرًا.

حين بدأتُ أفهم الكلمات،
كان أبي قد رحل.

لم أحزن عليه كما يفعل الآخرون،
لأنني لم أملك ذكرى
كي أبكي عليها.

بعد وقتٍ قصير
اكتشفت أنني كبرت فجأة.
لا أحد قال لي ذلك،
لكن الحياة تصرفت معي
كأنني المسؤول.
درستُ...

وعملتُ...

وتعلمتُ كيف أكون حاضراً

حين لا يوجد من يحضر مكاني.

كنتُ المعيل الوحيد،

والسند الوحيد،

والظهر الذي لا يُسمح له بالانحناء.

كبرتُ وأنا أعد نفسي:

سأكون شيئاً،

ليس هروباً من الماضي،

بل انتصاراً عليه.

أريد مكانة لا تُشترى،

واحتراماً لا يُطلب،

وحياة لا يُضطر فيها أحد

أن يكبر قبل أوانه.

أقسمتُ أن أولادي

لن يعرفوا معنى النقص،

ولا ثقل الغياب،

ولا طعم المسؤولية

وهم ما زالوا أطفالاً»

في الليل، كان الممر طويلا وبارداً،

ورائحة المطهر

تلتصق بيديه

كما لو كانت تذكيراً دائماً

بأن الراحة ليست له.

أيقظ المرضى،

وقاس النبض،

وضبط الأجهزة،

وتعلم كيف يُمسك يداً ترتجف

دون أن ترتجف يده.

حين أغمض أحدهم عينيه لأبد،

لم يسمح لنفسه أن يتأثر.

تعود أن يُكمل.

مع الفجر.

جلس دقيقة واحدة فقط.

أغمض عينيه،

لا لينام،

بل لينسى

كم هو متعب.

ثم نهض،

لأن يوماً آخر

كان ينتظره

كأن الأمس لم يكن،

فمع كل انتقال،

كان يغير المكان

ولا يغير التعب.

هذه ليست حكاية فقدٍ عادي،

بل حكاية شخص

أُجبر على أن ينمو

في مكانٍ لم يكن مستعداً له.

أن تفقد الأب مبكراً

لا يعني فقط أن تخسره،

بل أن تخسر حقك

في التأخر،

في الخطأ،

في أن تحتاج.

بعض الناس لا تُسرق منهم الطفولة دفعة واحدة،

تُنتزع منهم

على مراحل هادئة،

حتى يعتادوا أن يكونوا جاهزين دائماً.

وحين يقول:

"سأكون شيئاً"...

فهو لا يحلم فقط،

هو ينجو.

" بعض الناس لم يُولدوا صغاراً

وُلدوا جاهزين...

ليس لأنهم أقوى،

بل لأن الحياة لم تترك لهم خياراً آخر.»

بعد أن أنهى القراءة،

لم يطوى الرسالة فوراً،

بقيت بين أصابعه

كأنها لا تزال تحمل حرارة طفلٍ

لم يُسمح له القدر أن يكون طفلاً.

شعر بشيءٍ ينكسر داخله ببطء،

أدرك فجأة أن بعض الناس

لا يخسرون طفولتهم في لحظة،

بل تُسحب منهم يوماً بعد يوم

حتى يعتادوا الغياب

أغلق عينيه لثانية،

ليس هرباً ...

بل احتراماً لوجعٍ عاش طويلا ً بصمت.

ثم زفر،

كمن فهم أخيراً،

أن هناك أطفالا

لم يُسمح لهم أن يكونوا صغاراً،

فكبروا

وهم يحملون العالم بدل الألعاب.

مد يده أخيراً نحو الظرف التالي.

كان بلونٍ باهت مائل إلى الأخضر الرمادي،

لون الأشياء التي أنهكها الانتظار

ولم تمت بعد.

لم يكن الظرف ناعماً،

كان ملمسه خشناً قليلًا،

كأن أحدهم أمسكه طويلا ً بيدٍ ترتجف.

وفي زاويته،

رُسم رمز رئة متشققة

كأنها تحاول أن تتنفس رغم الشقوق.

توقف لحظة.

شعر بشيء ينقبض في صدره،

إحساس يعرفه...

إحساس من قرأ قصص كثيرة عن الألم

لكن هذه المرة يعرف أن الألم سيخرج من الجسد لا من الذكرى.

شد أنفاسه، ثم فتح الظرف.

« لم أكن أبحث عن هروبٍ كبير،
كنت فقط أريد لحظة أخفف فيها عن نفسي.

كنت صغيراً،
أقل من عشرين عاماً
وأظن أن السيجارة
مجرد فكرة عابرة،

متعة قصيرة، لا أكثر.
لم أفكر بالإدمان،
ولا بالنهاية.
سيجارة وراء أخرى،
حتى صرت أنا الذي يُسحب،
لا الذي يختار.
ثم بدأ الجسد يتكلم.
صار النفس ثقيلا،

كأن علي أن أطلب الإذن
من الهواء لأبقى حياً.

نفسٌ أول...
نفسٌ ثانٍ...
أما الثالث
فكان يُشبه رجاءً صامتاً
ألا أموت الآن.

لم يعد ضيق النفس إحساساً عابراً
قيل لي إن الربو استقر في رئتي،
وإن الهواء لم يعد حقير الكامل.

مرض يتبعه مرض،
حتى جاء الخبر
الذي لم أكن مستعداً له.

جاءت صدمة أخرى،

فشل كلوي،

كأن الجسد قرر أن يعلن الحرب كاملة،

دفعة واحدة،

بلا إنذار.

لم يعد الألم فكرة،

صار رفيقاً.

الأقسى لم يكن الوجع،

بل الوحدة.

غرفة مغلقة،

وساعات طويلة

أقف فيها وحدي

أمام جسدٍ يتخلى عني.

في تلك اللحظات
لم أعد أتمنى أن أكون قوياً،
ولا مثالا ً لأحد.
أتمنى فقط
أن أكون طبيعياً ...
أتنفّس دون خوف،
أضحك دون وجع،
وأعيش
كما يعيش الآخرون،
بلا إذن من الألم.

لم أكمل الخامسة والعشرين،
لكنني تعلمت
أن بعض الاختيارات الصغيرة
تدفع ثمنها
حياة كاملة.

هذه ليست قصة سيجارة،
بل قصة وهم شائع،
أننا نتحكم بما نؤجل عواقبه.

لا أحد يبدأ الإدمان
وهو ينوي السقوط،
لكن الجسد لا يفهم النوايا،
يفهم الأفعال فقط.

ما يؤلم هنا
ليس المرض وحده،
بل أن يكتشف الإنسان متأخراً
أنه كان أقسى على نفسه
مما كانت الحياة عليه.
وهذه القصة.
لا تطلب شفقة، بل وعياً.

أن نفهم أن "لحظة المتعة"
قد تتحول
إلى سنوات من الرجاء الصامت
ألا يتوقف النفس.

تساءلت:

كم عادة بدت بسيطة
وغيرت مصيراً كاملا؟

هل ننتبه لأجسادنا
قبل أن تبدأ بالانتقام؟

ولماذا لا نخاف من الأشياء
إلا بعد أن تسكن فينا؟

وهل نحتاج أن نمرض

لنفهم معنى أن نكون طبيعيين؟

" لم أتمنى أن أكون قوياً،

تمنيت فقط

أن أتنفس

دون أن أستأذن الحياة. "

ساد الصمت بعد آخر سطر،

صمت امتلأ بما لا يُقال.

كأن الكلمات خرجت من الورق وجلست في المكان، تتنفس بصعوبة،

لم يكن في الرسالة صراخ، ولا طلب نجدة،

شعور غريب... أن تقرأ وجعاً لم يُكتب ليُبكى عليه، بل ليُفهم.

لحظة تدرك فيها أن بعض القصص لا تريد شفقة، بل شاهداً فقط.

اغمض عينيه للحظة،

ثم أخذ ظرفاً أخر.

كان الظرف أثقل مما يبدو.

لونه رمادي مائل إلى الترابي المحروق ، كأنه اختزن

دخاناً لا يُرى، وعلى زاويته أثر رمز يشبه بصمة

محترقة...

أمسكه ببطء، لا خوفاً، بل احتراماً لشيءٍ يشعر أنه لن يخرج منه كما دخل.

الورق بدا هشاً، كأن داخله قصة لا تريد أن تُفتح لكنها سئمت الصمت.

توقف لحظة.

شعر كأن الهواء نفسه يتهيأ لما سيُقال.

لم يكن مستعداً

لكنه أدرك أن بعض الرسائل لا تُفتح بإرادتنا...

بل لأن الوقت قرر أن يواجهنا بها.

ثم فتح الظرف.

« لم أكن أريد بطولة،

ولا ذاكرة طويلة،

كنت أريد مساءً عاديًا...

شمعة واحدة،
ضحكة زوجتي وهي تراقب طفلنا يزحف كأن الأرض خُلقت لأجله.

خرجت دقيقة واحدة فقط،
دقيقة ظننتها بلا ثمن،
عدتُ فوجدت الزمن قد سبقني بخمس سنوات من العذاب.

ما زلت أسمع صوته يناديني،
وأقسم أنني لم أتأخر،
لكن العالم كان أسرع من قلبي.

أنا لا أعيش في الماضي،
أنا عالق في لحظة
رفضت أن تمضي.

كان يجلس على الرصيف،

ظهره إلى البيت،

ووجهه إلى الفراغ.

كان يبتسم،

يميل برأسه قليلا،

ويحرك أصابعه في الهواء

كما لو كان يلاعب أحدًا لا يراه سواه.

قال بصوت هادئ، مطمئن: «انظر… لقد بدأ يمشي».

اقترب الجار ببطء،

توقف على مسافة

ثم قال بتردد: «مع من تتحدث؟».

لم يلتفت للرجل،

ضحك، وقال: «ألم تره؟ ابني هنا... وزوجتي تجلس بقربي».

ساد الصمت،

كأن الشارع كله حبس أنفاسه.

قال الجار، هذه المرة بصوت مكسور: «يا أخي إرحم نفسك... لقد رحلوا منذ خمس سنوات».

تجمد الزمن.

استدار الرجل ببطء،

نظر إلى البيت،

لم يكن بيتاً ...

كان هيكلا ً أسود،

جدراناً متفحّمة.

نظر إلى يده...

كانت فارغة.

لم يصرخ.

جلس فقط،

وهمس وعيونه إمتلأت بالدموع: «إذاً ... لماذا ما زال قلبي يحترق؟ ».

أدركت متأخراً أن الإنسان لا ينجو دائماً من الموت،

أحياناً ينجو جسده فقط،

وتبقى روحه هناك...

في المكان الذي احترق.

بين سطرٍ وآخر، كانت التساؤلات تسبقني:

لماذا ينجو من كان مستعداً أن يفنى؟

ولماذا يُترك من لم يحتمل الفقد؟

هل الذاكرة رحمة...

أم شكل آخر من أشكال العقاب؟

وهل الجنون هروب؟

أم محاولة أخيرة للبقاء مع من أحببنا؟

" بعض الحرائق لا تترك رماداً

بل تترك إنساناً يعيش عمره

وهو يعتذر لذكرى

لن تسمعه أبداً. "

أنزل الورقة ببطء،

لم يستطع إكمال القراءة،

ولا إعادة السطر الأخير.

شيء ما في صدره انكسر بصمت،

كأن الكلمات خرجت من الورق

واستقرت فيه.

وضع الرسالة جانباً،

لأنه لم يعد قادراً على احتمالها.

جلس لحظة دون حركة،

يحدق في الفراغ،

كمن نجا من حريق

وما زال يشم رائحته في الهواء.

ثم تنفس ببطء...

كأنه يستعد لم هو أثقل.

مد يده للصندوق، ثم سحبها،

كان الخوف أثقل من الورق،

لكن الفضول كان أقسى.

شق الظرف ببطء...

كأنه يفتح جرحاً لم يلتئم.

كان الظرف قرمزياً داكناً،

لوناً لا يشبه الورق،

وفي منتصفه رمز صغير لخيط قطع للأبد.

شعر أنه لا يفتح رسالة،

بل يفتح اعترافاً متأخراً،

كُتب بعد أن صار الندم بلا فائدة.

تردد لحظة...

كأنّه يعرف أن ما بداخله

لن يُصلح شيئاً،

لكنه سيكشف كل شيء.

ثم فتحه.

« لم أكن أعلم
أن الكلمات التي كنت أظنها تربية
كانت حبالا تُشد حول روحك.

كنت أظن أن المقارنة تحفز،
ولم أفهم أنها كانت تطفئكِ،
كنت أظن أن القسوة تُصلح،
وما كنت أعلم أني أكسركِ،
وظننت أن الخوف من كلام الناس،
أهم من خوفكِ أنتِ.

لم أسألكِ يوماً: ماذا تريدين؟
ولا سألتكِ: هل تتألمين؟
كنت أراكِ بعين العالم،
لا بعين أمّ.
قلتُ لكِ: كوني مثل غيرك.

ونسيتُ أن تكوني أنتِ.

جعلتُ الحب مشروطاً،
والقبول مشروطاً،
وكأنكِ مشروع يحتاج إلى تعديل
لا روحاً تحتاج إلى احتواء.

واليوم،
أقف وحدي
أحمل ذنباً أثقل من قدرتي على الاحتمال.
أبحث عنكِ في التفاصيل،
في صوتٍ لم يعد،
وفي حضنٍ فاتني أن أقدمه لكِ حين كنتِ تحتاجينه.
لو عاد بي العمر،
لخترتكِ أنتِ،
كما أنتِ... بلا شروط.»

هذه ليست قصة فتاة ضعيفة،
بل قصة ضغطٍ طويل
لم يجد صدراً رحيماً.

الانتحار لا يولد فجأة،
إنه نتيجة جُملٍ متكررة،
ونظراتٍ مستمرة،
ومقارناتٍ تسرق المعنى
من الوجود.

حين تتحالف الأسرة
مع قسوة المجتمع،
تصبح العزلة قاتلة،
حتى في بيتٍ مزدحم.

مع كل سطراً أقرأه تراودني تساؤلات:

متى تحول "كلام الناس" إلى حُكم إعدام؟

ولماذا نُربي أبناءنا ليُرضوا الجميع
إلا أنفسهم؟

وهل ندرك أن بعض النصائح
تُقال بلسان الحب
لكن تُسمع كإهانة؟

" لم تنتحر لأنها ضعيفة،
بل لأنها لم تجد في أقرب الناس
مكانًا آمنًا تتنفس فيه. "

سقطت الرسالة من يده بهدوء،

كأن أصابعه لم تعد قادرة على حمل هذا الثقل.

ظل ينظر إلى الفراغ أمامه،

شيئاً فيه انكسر بصوتٍ خافت،

ذلك الصوت الذي لا يسمعه أحد

إلا من عرف معنى أن يتأخر الندم كثيراً.

مد يده للصندوق وأخرج أخر ظرف بقي داخله،

كان الظرف هذه المرة بلون أخضر زيتوني.

يحمل رمز شمة تذوب ببطء.

تردد.

ليس خوفاً من الكلمات،

بل من الفكرة أن ما سيقرؤه

قد يكون شيئاً عاشه… ولم ينتبه.

مد يده خيراً،

ثم…

«تعبتُ لأنني دائماً القوي...
ولا أحد يسأل القوي كيف ينجو
منذ وقتٍ طويل
وأنا الشخص الذي يُعتمد عليه.
الذي يسمعون صوته
عندما يحتاجون حل،
ولا يسمعونه
عندما يحتاج حضناً
لم اشتكي.
ليس لأنني بخير،
بل لأنني لا أعرف كيف أشتكي
دون أن أبدو ضعيفاً
في عالم لا يرحم الضعفاء.
كل مرة كنتُ أريد أن أقول:
(تعبت)

كنتُ أبتلعها،
وأكمل.

قالوا لي:
أنت قوي.
وأنا صدقتهم
حتى نسيت
كيف أكون إنساناً.

لا أحد يرى
أن القوي
ينهار بصمت.
ولا أحد ينتبه
أنني صرت أؤجل نفسي
من أجل الجميع.
أنا لا أطلب إنقاذاً،

ولا بطولة.

كنتُ أريد فقط

مرة واحدة

أن يسألني أحد بصدق:

كيف حالك...

دون أن ينتظر مني جواباً شجاعاً.»

أحياناً

لا يكون الكسر في الذين سقطوا،

بل في الذين وقفوا طويلا ً

حتى تآكلت أقدامهم.

لماذا نُجيد رؤية أخطاء الآخرين

ولا نرى تعبهم؟

وكم شخصاً حولنا
يمشي مكسوراً
لأنه تعلم أن يكون قوياً؟

وهل القسوة دائماً قسوة؟
أم أنها أحياناً
لغة لم تجد من يترجمها؟

" القوي لا يحتاج تصفيقاً ...
يحتاج من يسمح له أن ينهار دون أن يخجل."

أغلقتُ الظرف ببطء...
كأنني أخاف
أن يهرب منه الوجع.

شعرتُ أنني
لم أعد كما كنت
قبل فتحه.

وضعتُ الظرف جانباً،
وشعرتُ أن شيئاً في داخلي
انزاح...
لا شفاءً،
بل فهماً.
والفهم أحياناً
هو بداية الألم الحقيقي.

سأل نفسه: كيف يمكن للمرء أن يحمل العالم كله بداخله، بصمت؟
كيف يمكن للقوة أن تكون لعنة أحيانًا، أن تحجب عن صاحبه حقه في الضعف، في الصراخ، في أن يُسأل أحدهم بصدق: "كيف حالك؟"
تذكر لحظات في حياته عندما تصرف مثل القوي، ابتلع التعب، وأكمل. وفجأة فهم أن كل صمت، كل ابتسامة أخفى وجعًا، وأنه ليس وحده من شعر بهذا.

لماذا نصنع من القوة صمتاً يقتل الإنسان من الداخل؟.

مد يده ببطء نحو داخل الصندوق.
لم يكن يعرف لماذا يفعل ذلك، ولا ماذا يتوقع أن يجد.
كان في حركته شيء يشبه التردد، وشيء آخر يشبه الاستسلام.
لمس أطراف الورقة قبل أن يراها.

كانت خشنة، متآكلة الحواف، كأن النار اقتربت منها ثم تراجعت.

فتحها.

وكان مكتوباً فيها:

«إذا وصلتَ إلى هذه الورقة،

فاعلم أنني حاولت كثيراً أن أبقى كما كنت.

حاولت أن أواصل السير،

أن أستيقظ كما يفعل الجميع،

أن أصدق أن الغد يشبه الأمس.

لكن شيئاً ما في داخلي توقف...

ليس فجأة،

ولا بصوتٍ مسموع.

توقف بهدوء مخيف،

كأن الحياة نفسها سحبت يدها من يدي

وتركتني واقفاً، أحدق في المكان.

وأتساءل:

كيف يمكن للمرء أن يكون هنا...

ولا يكون؟»

قرأ السطور ببطء.

ثم أعاد قراءتها دون أن يشعر.

شيء ما في صدره بدأ يثقل، لا ألماً واضحاً، بل ضغطاً صامتاً.

الحروف بدأت تتداخل ببعضها ، غير وضوحه،

شعر بدوار خفيف.

ليس دواراً كاملا... بل انزلاقاً.

كأن الأرض تسقط،

تسلل طنين خافت إلى أذنيه، لا صوت محدد له،

بدأ الضوء يخفت ببطء،

ثم جاءت الرائحة.

رائحة حادة، غريبة، لا تنتمي للمكان الذي كان فيه، تشبه رائحة المعقمات.

فتح عينيه ببطء.
سقف أبيض،
وضوء ثابت.
وأنابيب رفيعة، وأسلاك تمتد قربه وتلتصق بجسده.
حاول أن يتحرك، فشعر بثقل في جسده، كأن شيئاً ما يضغطه إلى السرير.
تنفس ببطء، بوعيٍ غير مكتمل.
لم يكن يعرف أين هو،
ولا كيف وصل،
ولا لماذا بقيت تلك الكلمات عالقة داخله...
أوضح من كل ما حوله.
حاول أن يتذكر آخر ما كان يفعله،
شيئاً ما كان هناك... شيئاً كان بين يديه.

تحركت شفتاهُ بصعوبة، خرج صوته متقطعاً:

" الصن... دو... ق "

مرت لحظات لم يستطع تقديرها،

لم يكن يعرف إن كانت ثواني، أم دقائق، أم زمناً أطول.

فقط يسمعُ أنفاسهُ، متقطعة، غير منتظمة.

ثم سمع حركة خفيفة، خطوات تقترب، انفتح الباب

بهدوء، دخلت إمرأة ترتدي زياً طبياً،

تحمل في يدها ملفاً، وتتحرك بخفة من اعتاد هذا

المكان.

توقفت فجأة حين وقعت عينيها عليه، تبدلت ملامحها

لدهشة سريعة لم تستطع إخفاءها.

اقتربت منه ببطء،

ثم قالت بصوت هادئ : " الحمدلله... أخيراً استيقظت "

حاول يجيب، لكن الكلمات خرجت متعثرة. ابتلع ريقه،

ثم همس بصعوبة: " أ... أين... أأنا ؟ "

توقف للحظة.

كمن يبحث عن جملة مناسبة، ثم قالت بنبرة هادئة، مدروسة : " انت في مكاناً أمن... لا تقلق "

سأل بصوت واهن: " كيف...وصلت...إلى هنا "

ترددت قليلا ً، لم تجبه فوراً، وأخذت تبدل المحلول المعلق بجانبه، وكأنها تهرب من سؤاله.

ساد صمتٌ قصير.

شعر بأن السؤال معلقاً في الهواء بلا جواب،

وأنها تتجنبه عمداً.

ثم كرر عليها نفس السؤال، لتجيبه بصوت مطمئن:

" الأهم أنك بخير الآن ، وستتعافى قريباً "

ظل ينظر إلى السقف يبحث عن فكرة، عن أي خيط يُمسكه بالعالم.

لاحظت سكوته، فسألته: " هل تشعر بالألم؟ "

هز رأسه بالنفي.

ثم قال بصوت ضعيف: " أين... الصندوق "

اقتربت منه أكثر، مالت برأسها لتسمعه، فأعاد الكلام بصعوبة أكثر: " الص...ندوق... أين... الصندوق " .

-- " ماذا تقصد؟ "

نظر إلى الفراغ، وكأن ذاكرته تبحث عن شيء ضاع منها.

ثم تكلم بصوت واهن: " الصندوق... الرسائل... كانوا معي "

غيرت نبرة صوتها، جعلتها أكثر ليونة: " لم أفهم ماذا تقصد، لكن لا بأس، انت مازلت متعباً "

مدت يدها لتعدل الغطاء فوقه، ثم أضافت:

" ستستعيد قواك تدريجياً...فقط استرح الآن" .

لكن عينيه ظلتا معلقتين بالفراغ، وكأنهما يبحثان عن شيء لا يراه سواه.

تمتم مرة أُخرى بصوت أقرب للهمس: "كيف وصلت إلى هنا؟... أين ذهب الصندوق؟"

نظرت إليه وقالت قبل أن تستدير نحو الباب:

"سأنادي الطبيب "

دخل الطبيب بعد قليل،رجل في منتصف العمر، صوته موزون كمن اعتاد التعامل مع الهشاشة البشرية.

وقف عند طرف السرير، تأمل وجهه طويلا ً قبل أن يتكلم: "صباح الخير...هل تسمعني؟ "

هز رأسه بصعوبة.

--" كيف حالك الآن؟ هل تشعر بألم؟ "

لم يجبه بقي يحدق فيه طويلا ً.

سأله بلطف: " هل تتذكر إسمك؟ "

تردد، ثم أجاب بصوت واهن: " كنان "

--" هل تعرف أين أنت الآن؟ "

نظر إليه بعينين تائهتين.

ثم قال فجأة بإصرار طفولي: " كان معي... الصندوق... لابد أن يكون هنا "

نظر الطبيب إلى الممرضة نظرة سريعة، ثم نظر إليه وقال بنبرة ثابتة: " هل تتذكر آخر ما حدث قبل أن تصل إلى هنا "

-- " الشجرة... الصندوق "

اقترب الطبيب قليلا ً وأكمل بنبرة دافئة: " هل تستطيع أن تخبرني أين كنت؟ "

هز رأسه بعجز، ظل صامتاً للحظة.

ثم قال: " كان... معي... لا أعلم أين ذهب "

تبادل الطبيب والممرضة نظرة صامتة، ثم قال بنبرة أخفض، وكأنه يشرح لها أكثر مما يشرح له: " يبدو أن الذاكرة مازالت مشوشة، أحياناً...

بعد الصدمات الشديدة، يصنع العقل

صوراً يتمسك بها ليحتمي من الألم "

شد أصابعه على الغطاء، تكلم وشفتاه ترتجف:

" لاااا... أنا متأكد... الصندوق كان هنا... أعيدوه لي "

قال الطبيب بهدوء: " اهدء... اهدء... لا داعي لأن تجهد نفسك "

لكن الكلمات بدأت تتزاحم في صدره، صوته أرتجف وهو يحاول أن يشرح مالا يُشرح:

" لم يكن حلماً أنا متأكد... كانت هناك رسائل... كانت بين يدي... أقسمُ لك "

مد الطبيب يده بإشارة خفيفة إلى الممرضة دون أن يقطع التواصل البصري معه.

-- " اعتقد انك بحاجة للراحة الآن "

اقتربت الممرضة بهدوء، وهي تحضر الحقنة.

بينما ظل الطبيب يتحدث بصوت مطمئن، كأنه يخاطب طفلا ً خائفاً: " كل شيء سيكون على ما يرام، فقد استرخي قليلا ً "

شعر بوخز خفيف بذراعه، حاول أن يعترض، أن يقول شيئاً، لكن الكلمات خانته.

حاول أن يرفع صوته، لكن الكلمات خرجت مبحوحة، متكسرة:

" كيف تقولون أنها لم تكن؟

أنا مازلت أشعر بها تحترق في يدي...

مازالت كلماتها تنبض في رأسي...

إن كانت وهماً...

فلماذا يؤلمني هذا القدر؟ "

انحدرت دمعة بطيئة من طرف عينه.

تكلم الطبيب بهدوء وهو يراقب أثر المهدئ:

" الصدمة كانت شديدة... ثلاثة أشهر من الغيبوبة كفيلة بأن تصنع عالماً كاملاً داخل رأسه "

أجابت الممرضة وهي تنظر إليه بشفقة: " لكنه يتحدث وكأن تلك الأشياء كانت حقيقية "

أخذ نفساً عميقاً، ثم قال: " بالنسبة له... كانت حقيقية تماماً "

ساد الصمت بالغرفة، ولم يبقى سوى صوت الأجهزة.

في صباح اليوم التالي.

كانت تقف خارج الغرفة، تراقبه من خلف الزجاج الشفاف.

لم تدخل فوراً.

رأت عينيه تفتحان ثم تغلقان، كأنهما تبحثان عن شيء لا تعرفه.

عندها فقط تحركت، دفعت الباب بهدوء ودخلت

بخطوات محسوبة، لم ترد أن تفزعه.

اقتربت من السرير، نظرت إلى الأجهزة ثم إليه.

قالت بصوت منخفض: " كيف حالك الآن؟ "

نظر إليها دون تركيز، ثم تمتم بصوت بالكاد يسمع: كنتُ

في مكانٍ آخر "

-- " ما الذي تتذكره؟ "

هز رأسه ببطء " لا أدري... فقط أشعر أنني تركت شيئاً

خلفي "

نظرت إليه لحظة أطول، ثم قالت بنبرة مهنية هادئة: " خذ وقتك... ذاكرتك ستعود تدريجياً "

لكن في عينيها، كان هناك شيء آخر...

شيء يشبه الحذر، او معرفة لا تريد الإفصاح عنها بعد.

تقدمت خطوة ثم تراجعت.

بدا عليها التردد، كانت تراقب وجهه بصمت كأنها تحاول أن تقرأ ما لا يقوله.

ثم استدارت وخرجت من الغرفة بهدوء.

بعد أن أغلقت الباب خلفها.

عاد الصمت يملأ الغرفة من جديد.

بقي يحدق في السقف.

حاول أن يستجمع شيئاً من ذاكرته، لكن الأفكار كانت تتفلت منه، كلما اقترب منها تلاشت.

مضت بخطوات بطيئة في الممر حتى وصلت إلى مكتب الطبيب.

توقفت عند الباب، ثم طرقته طرقاً خفيفاً.

رفع الطبيب رأسه، نظر إليها.

فبدأت بتكلم: " هو مستيقظ... لكن حالته لا تطمئنني...

لا يبدو مشوشاً فقط... كأنه غائب عن نفسه "

سكتت لحظة، ثم أضافت بصوت أهدأ:

" أظن أنه يحتاج هواءً... ربما لو خرج قليلا ً إلى الحديقة "

-- " حسناً اخرجوه قليلا ً... ربما يساعده ذلك "

عادت إلى الغرفة، أقتربت منه وقالت بنبرة هادئة:

"سنخرج قليلا ً إلى الحديقة...

الهواء قد يساعدك "

لم يجبها، لكنه لم يعترض.

عندما خرج إلى الحديقة.

تغير الهواء شعر به يلامس وجهه، مختلفاً عن هواء الغرفة.

كان الصمت مستقراً حوله، لا يقطعه سوى أحتكاك.

خفيف لأوراق الشجر

وصوت بعيد لسيارات تمر خلف السور.

أغمض عينيه قليلا.

كانت الممرضة تقف قريبة منه، تراقبة دون أن تقترب.

مرت لحظات وهو على حاله، وفجاة شق السكون صوت حاد.

صرخة عالية.

صرخة طفل، لم تكن طويلة، بل قصيرة حادة.

ارتجف جسده دون أن يدري لماذا، تسارعت أنفاسه كأن

الهواء لم يعد يصل إليه كما يجب.

شعر بدوار مفاجئ، ضغط ثقيل في رأسه.

ثم جاءت أصوات أخرى.

مشوشة، غير مكتملة في رأسه.

صوت ارتطام، احتكاك، صراخ، انفاس متلاحقة... ثم

صمت مفاجئ.

وضع يده على رأسه، كأنه يحاول إيقاف ذلك التدفق المربك.

لم يكن يعرف ما الذي يتذكره ولا إن كان ما يشعر به ذكرى، أم وهماً.

اقتربت الممرضة بسرعة.

انحنت نحوه، تحدثت بصوت منخفض تحاول تهدئته.

طلب منه ان يتنفس ببطء، كانت عيناها تراقبان وجهه بقلق.

وهو بالكاد يسمع كلماتها.

امسكت الكرسي وقالت بنبرة حاولت أن تكون هادئة: " سنعود إلى الغرفة حسناً،يبدو أنك متعب "

في الغرفة ساعدته على الاستلقاء، عدلت الوسادة خلف رأسه.

بعد دقائق.

دخل الطبيب.

نظر إليه نظرة فاحصة، ثم أقترب وقال بهدوء محسوب: " كيف تشعر الآن؟ "

ابتلع ريقه بصعوبة، ثم قال بصوت خافت: " أشعر... أن هناك شيئاً ناقصاً "

توقف لحظة.

ثم أضاف: " كأن شيئاً حدث... وأنا لا أستطيع تذكره "

تبادل الطبيب والممرضة نظرة قصيرة لم تفته.

تابع بصوت أضعف: " أنا متأكد أن هناك شيئاً، شيء كبير... لماذا لا أستطيع تذكره؟ "

سكت الطبيب لحظة قبل أن يجيب.

وكأنه يختار كلماته بعناية: " أحياناً يحجب العقل ما لا يستطيع تحمله دفعة واحدة... هذا طبيعي بعد ما مررت به "

-- " وما الذي مررتُ به "

سؤاله جاء مباشر هذه المرة.

تنفس الطبيب بعمق وقال: " الأهم أن تستريح الآن،
سنأخذ الأمور خطوة خطوة "
لم يقتنع.
كان يشعر أن الإجابة تخفى عنه عمداً.
لكن التعب كان أثقل من أن يسمح له بالجدال.
بعد لحظات قدموا له الطعام.

تناول منه القليل، بلا شهية، ثم ترك الطبق جانباً.
حين خلا المكان، ولم يبقى سواه، اغمض عينيه محاولا
الهرب من ثقل الأفكار.
وبينما كان جسده يثقل شيئاً فشيئاً،
إنزلقت روحه إلى نوم غير مستقر.
هناك في الظلام.
بدأت الأصوات تظهر، غير مكتملة، متقطعة.
صوت إرتطام.
صرخات قصيرة، ثم صمت كثيف.

يخترقه أنفاس متسارعة...

فتح عينيه بفزع.

كان يتنفس بسرعة، يداه ترتجفان.

جلس بصعوبة، وأسند ظهره إلى الوسادة.

أخذ نفساً عميقاً... ثم آخر.

لكن الهواء لم يكن كافياً.

مد يده المرتجفة إلى الكأس القريب، شرب جرعة

صغيرة، ثم اخرى حتى هدأ الارتجاف قليلا.

بقي جالساً يحدق في الفراغ.

كان يشعر بشيء ناقص... شيء لم يكتمل،

كأن عقله توقف عند باب مغلق ولم يستطع العبور.

بعد وقت لا يعرف طوله غفا دون أن يشعر.

هذه المرة كان كل شيء أوضح.

صوت إرتطام حاد.

معدن يضرب معدن.

صرخة ليست بعيدة.

صوت أنفاس متقطعة، متسارعة، ثم صمت مفاجئ.

رأى ومضات خاطفة.

ظل يتحرك، ضوء يمر بسرعة.

اهتزازاً عنيفاً، ثم أحساساً خانقاً، كأن شيئاً ثقيلا

انطبق على صدره.

حاول أن يصرخ، لكن صوته لم يخرج.

حاول أن يتحرك، فلم يستطع.

وفي اللحظة التي شعر فيها بأن الهواء قد انقطع تماماً.

انتفض.

جلس فجأة، يتنفس بعنف، وقلبه يكاد يخرج من

صدره.

كان الفجر قد بدأ يتسلل من النافذة.

مسح وجهه بكفيه، ومرر يده على صدره كأنه يتأكد أنه

مازال حياً.

وقف ببطء، تمايل قليلا ً، ثم استقام.

لم يعد يحتمل البقاء في الغرفة.

فتح الباب بهدوء، فالتقت عيناه بالممرضة في الخارج.

توقفت حين رأته على حاله.

-- " ما بك... هل تشعر بتعب؟ "

قال بصوت متعب، خافت: " أحتاج أن أتحرك قليلا...

أن أخرج من هذه الغرفة "

نظرت إليه بتردد، ثم أومأت برأسها.

رافقته بخطوات بطيئة في الممر الطويل.

قالت بصوت منخفض: " هل تشعر بتحسن؟ "

تردد قليلا ً قبل أن يجيب: " لا أدري... أشعر أن

رأسي ممتلئ بشيء لا أراه بالكامل "

نظرت إليه ثم أعادت نظرها إلى الممر أمامها.

-- " أحياناً الذاكرة تتأخر، لكنها لا تضيع "

-- " لماذا أشعر... أنني لست وحدي؟... رغم أنني لا

أتذكر أحداً "

توقف خطوة، ثم نظرت إليه مباشرة وقالت بهدوء يشبه الوعد: " لأنك لست وحدك فعلا "

نظر إليها طويلا ً، نظرة فيها شيء من الإمتنان.

--" دعنا نعود الآن... تحتاج إلى الراحة "

هز رأسه موافقاً ومشى معها.

ثم انشق الهواء فجأة.

صوت ضجيج يعلو، خطوات تركض، صفارة الطوارئ تصدح في المكان.

توقفت للحظة حدق في الفراغ.

جسده توقف عن الإستجابة، تسلل إلى أنفه شيء ثقيل... رائحة مختلفة، حادة، يعرفها دون أن يعرف أين، رائحة لا تخطئها الذاكرة. رائحة الموت.

تغير تنفسه فجأة، تسارعت أنفاسه وتصلب جسده كأن الهواء انقطع عنه.

سألته وهي تقترب: " هل انت بخير؟ "

لكنه لم يجب.

بدأت الصور تتدافع في رأسه.

صرير حديد، ارتطام زجاج صرخات متداخلة، انفاس متقطعة، ملامح مذعورة، وشهقة طفل انقطعت قبل أن تكتمل.

وضع يده على صدره يحاول أن يمنع شيئاً من الانفجار داخله.

اهتز العالم من حوله، تشوهت الصورة أمامه.

ثم سقط.

فتح عينيه بصعوبة.

كان السقف أبيضاً، والضوء حاداً

وجوه تتحرك فوقه، أصوات متداخلة

-- الضغط ينخفض.

-- نبضه غير منتظم.

-- فتح عينيه... هل تسمعني؟.

اقتربت الطبيب وقال بهدوء مهني يخفي قلقاً واضحاً:

" أنت بخير الآن، فقط حاول أن تتنفس ببطء... جيد... مرة أخرى "

أدار رأسه بصعوبة.

فرأى الممرضة ذاتها تقف قريباً عيناها متعلقتان به وكأنها تخشى أن يضيع مرة أخرى.

تمتم بصوت متقطع: " الرائحة... كانت... هنا... نفس الرائحة "

نظر إليه الطبيب وقال بنبرة متزنة: " ما مررت به كان إجهاداً شديداً... يستدعي الجسد أحياناً ذكريات لا نفهمها "

أغمض عينيه بقوة، كان يعلم في داخله أن ما شعر به لم يكن مجرد إرهاق.

كان شيئاً آخر... شيئاً يعرفه جيداً لكنه لا يتذكره بعد.

نظر إلى الطبيب بعينين تائهتين.

-- "كم... كم مضى من الوقت وأنا هنا"

أجاب الطبيب بهدوء محسوب: " كنت في غيبوبة... لمدة ثلاثة أشهر "

اتسعت عيناه، وتصلب جسده: " ثلاثة أشهر؟ "

-- " نعم... وبصراحة... لم نكن نتوقع أن تستيقظ،

حالتك كانت حرجة جداً والإصابات التي تعرضت لها

جعلتنا نظن أن الأمل في نجاتك ضعيف للغاية "

حدق في السقف كأن الكلمات لم تصل بعد.

ثم همس: " والذين... كانوا معي؟ "

انخفضت نظرة الطبيب إلى الأرض ثم رفعها بصعوبة: "

للأسف... لم ينجُ أحد "

انكمش صدره كأن شيئاً انكسر في داخله دون صوت.

خرج الجميع ولم يبقى سوى الممرضة تبدل المحلول

المعلق بيده وعندما همت بالخروج ناداها بصوت

خافت.

توقفت.

التفتت نحوه، وكأنها كانت تتوقع النداء أو تخشاه.

أجابت بنبرة هادئة: " نعم "

رفع عينيه إليها وفي نظرته شيء لم تستطع تفسيره.
قال بصوت متعب، لكنه ثابت: " قولي لي... عندما ينجو الإنسان وحده... هل يكون ذلك لأن له فرصة ثانية؟ أم أن البقية تُترك فيه ليكملوا الموت داخله "

تقدمت خطوة، ثم جلست على الكرسي القريب من السرير.
وكأن السؤال لم يكن عابراً.
-- " النجاة أحياناً لا تكون خلاصاً، بل مسؤولية لا يختارها الإنسان "
-- " أشعر وكأنني أحمل شيئاً ليس لي... أصوات، ثقل، ألم، وفراغ لا أعرف مصدره.
تنفست بعمق، ثم قالت بهدوء:" ربما لأنك كنت حاضراً حين لم يستطع الآخرون البقاء...
البعض لا ينجون ليعيشوا بل ليشهدو "

نظر إلى يديه، ثم قال: " هل تعتقدين أن الأنسان يستطيع البدء من جديد دون أن يهرب مما خلفه؟ "

ابتسمت ابتسامة خفيف.

لا تشبه المواساة بقدر ما تشبه الصدق.

أظن أن البداية الحقيقية... هي أن نعترف بما نحمله، لا أن نهرب منه "

ساد صمت مريح.

ثم قال فجأة: " وماذا عنكِ هل تعتادين هذا المكان؟ "

-- " لا أحد يعتاد على الألم... لكننا نتعلم كيف نمر من جانبه دون أن يبتلعنا "

تأملها طويلا.

كأنه يكتشف ملامحها للمرة الأولى.

شيء في صوتها كان يهدئ الفوضى داخله.

-- " أشعر بأنني أثقلت عليكِ اليوم "

هزت رأسها بإبتسامة صغيرة: " لا... أنت فقط تذكرني بأن بعض الأرواح تحتاج من يسمعها، لا من يعالجها "

نهضت بهدوء وعدلت ياقة معطفها.

-- " يجب أن ترتاح الآن "

توقفت لحظه عند الباب، ثم التفتت نحوه وقالت: " سنكمل الحديث لاحقاً... إن أردت "

أومأ برأسه وشكرها على لطفها واهتمامها.

بعد أسابيع.

كان يجلس قرب النافذة الواسعة، الضوء يتسلل بهدوء، وكوب القهوة الدافئ بين يديه.

خارج المنزل كانت الحياة تمضي ببطء.

سيارات تمر، أشخاص يعبرون، وشيئاً ما في داخله بدأ يستقر.

مر وقت... لا يعرف كم بظبط.

لكنه يعرف أنه لم يعد ذلك الشخص الذي استيقظ
مذعوراً في سرير المستشفى.
ومع ذلك كان يشعر أن شيئاً ما... مازال ناقصاً.

بعد أن فرغ من قهوته، لم يبقى في الكوب سوى مرارة.
باردة تشبه ما بقي داخله.
رفع رأسه قليلا ً... وفجأة، دون إنذار، عاد الصوت.
صوت الارتطام.
صوت الهواء وهو يُسحب من صدره بقسوة.
صوت أنفاسه المتقطعة، كما لو أن الرئة تذكرت الألم
قبل العقل.
توقف للحظة.
شعر بدوار خفيف، بقبضة تضيق حول صدره، كأن
الذاكرة قررت أن تُجربه مرة أخرى.
لكن هذه المرة... لم ينهار.

ثبت قدميه، أخذ نفساً عميقاً، وترك الموجة تمر.

نهض.

مشى بلا وجهة واضحة، فقط خطوات تقوده حيث يجب أن يكون.

الشارع بدا أطول من المعتاد، أهدأ، كأنه يمهد لشيء لا يُقال.

وحين وصل...

كانت القبور هناك.

صفوف صامتة، أسماء محفورة، تواريخ بداية ونهاية، كلها قصيرة على نحوٍ موجِع.

وقف بينهم، لا يبحث عن اسم بعينه، بل عن معنى.

وفي تلك اللحظة، هبت رياح خفيفة.

تساقطت أوراق صفراء حوله، واحدة تلو الأخرى، تلامس التراب، تلامس الحجارة...

وعندها فقط، انفتح شيء داخله.

تذكر الصندوق.

الرسائل.

الكلمات التي لم تُكتب لتُقرأ، بل لتُحمل.

فهم فجأة أن تلك الأوراق لم تكن حبراً فقط، بل أرواحاً عالقة، حكايات لم تجد طريقها إلا إليه.وتلك اللحظة الأخيرة التي لم تكن موتاً، بل عبوراً.

فهم أخيراً.

لم يكن هو الناجي الوحيد.

كان الشاهد.

الشاهد على خوفٍ لم يُقال،

على وداعٍ لم يُسمع،

على أرواح عبرت ولم تجد وقتاً لتلتفت خلفها.

خفض رأسه قليلا ً، وكأن الكلمات أخيراً وجدت مكانها.

لم يبكي، ولم يبتسم.

اكتفى بأن يضع كفه فوق صدره، حيث بقي شيء دافئ، عنيد، يرفض أن ينطفئ.

رفع نظره إلى السماء، وهمس—لا لنفسه، ولا لهم، بل للفراغ بينهما:

«ما نجا منكم شيء...

إلا ما تركتموه في داخلي.»

ثم استدار ببطء،

وترك المقبرة خلفه،

ليس لأنه نسي،

بل لأنه صار يحملها معه إلى الأبد.


لم ينجُ وحده
لم تكن الرسائل كلمات...كانت بقايا أرواحٍ
انكسرت قبل أن تُسمَع.
كل ظرفٍ يحمل رجفة يدٍ خائفة،
وكل سطرٍ يشبه اعترافًا قيل متأخرًا جدًا.
هو لم ينجُ...كان فقط الشاهد
الذي بقي واقفًا
بين ما فُقد، وما لم يُدفن بعد.
ذاكرةٌ تثقل صدره، وأصواتٌ تعود كلما حاول
الصمت.
هنا، حيث لا خلاص ولا عزاء،
تُفتح الرسائل لتكشف أن بعض الجراح
لا تموت...بل تنتظر من يجرؤ على قراءتها.